
[redacted]

محمد الحسين المظفر

الشيعة والإمامة

إصدار
مكتبة نينوى الحديثة
طهران ناصر خسرو مروى

M. al-Husayn al-Muzaffari

محمد الحسين المظفر

الشيعة والإمامة

مكتبة نينوى الحديثة

المقدمة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

- ١ -

لقد تم للجنة - والحمد لله - ما كانت تصبو اليه من تأليف كتب في فنون شتى تستطيع بها أن تأخذ بيد القارئ الكريم لتدله على مفاتيح الخزانات الاسلامية التي كانت مغلقة في وجه الباحث المتطلب.

واللجنة لاتدعي لنفسها بانها فعلت كلما ينبغي ان يفعل في مثل هذه الظروف التي طغت فيها التيارات المادية فأنست الناس ذكرى الاسلام، ولا تدعي انها اغنت الباحثين عن النظر في تلكم الخزانات القيمة، وانما هي تقول - وحسبها ذلك - إنها ستضع ايدي الباحثين بهذه الكتب على مفاتيح تلكم الخزانات.

- ٢ -

وهذا كتاب (الشيعة والامامة) الذي كان من رغبة اللجنة ان يتقدم

« * » عن المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر.



امام كتبها ، وذلك لأنه اول كتاب يتم تأليفه بعد تشكيل اللجنة بقليل ، وقد القي في خمس محاضرات في خمسة اسابيع ، ولان موضوعه يهم العالم العربي اليوم ، العالم الذي يجهل من امر الشيعة كل شيء ، فيستقي مباديءها من كتب اعدائها ويرميها بكل ما تبرأ منه .

قلت وهذا كتاب (الشيعة والامامة) على صغره فتح الباب عن جميع النواحي الحيوية في الامامة ، ود لنا بوثوق واطمئنان على ما تعتقد الشيعة الامامية في أئمتهم ، وعلى ما يجب ان يكون الامام عندهم ، مستدلا على ذلك ببعض ما تيسر من الادلة ، التي يعود معظمها الى العقل ، وهو مع ذلك محتفظ بالعرض التأريخي للمواضيع التي درسها في حنايا الكتاب باسلوبه الخاص .

- ٣ -

والشيخ المؤلف عالم متفنن ذو شخصية محبوبة تشع بالجاذبية للنفوس وتشع بالاخلاص والايمان والعقيدة .

تجلس اليه فيحدثك فيما يروقك من الحديث ، يحدثك في التأريخ وفي الكلام وفي الفقه والاصول وفي الادب العربي ، بنفسه دائرة معارف قديمة تجمع كل ما لذ وطاب من فنون العلوم .

يعجبك منه شغفه الغريب في التتبع والتحقيق والتأليف والمحاضرة ، والتأليف على الاخص في فنون جمة تهمه اكثر من غيرها ، كلها تمت الى مبدئه — أو قل مذهبه على الاصح — باوثق الصلات ، واذا استعرضت مؤلفاته تجد فيها — الشيعة والامامة — الامام الصادق عليه السلام — تأريخ الشيعة — الشيعة وسلسلة عصورها مذهبيا — ميثم التمار — حديث الثقلين — نفس النبي — الى ما شاكل ذلك مما يرجع الى مبادىء الشيعة الامامية ، فهو يكاد أن يكون متخصصا بهذه الفنون ، واذا اردنا أن نعلل ذلك عدنا به الى بيئته الخاصة والى ما شاهد من جهل المسلمين في الشرق وبعض

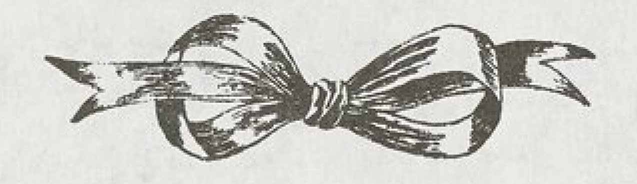


المستشرقين مبادئ الشيعة الامامية ـ أو تجاهلهم على الاصح ـ والتعصب عليها من دون ان يكون لهم أي مبرر .

واللجنة اذ تقدم الشيخ في هذا الكتاب إنما تقدم شيخاً كبيراً اوسع الكتب القديمة درساً وبحثاً واستخرج منها هذه الحقائق الواضحة، وهي فخورة بانها استحقت جل عنايته حيث تفضل بقبول رئاستها ، وحيث تفضل بتشجيع اعضائها على المثابرة في تأدية رسالتها المقدسة ، والحق ان الشيخ مثال للجد والفضيلة قليل النظير ، كثر الله في المسلمين امثاله .

١٥ ربيع الاول ١٣٦٥ ه

مقرر اللجنة



« بسم الله الرحمن الرحيم »

ولله الحمد والمجد وصلاته وسلامه على الصفوة من البشر محمد وعترته الأئمة الغرر

الشيعـــة

في معاجم اللغة ان الشيعة بمعنى الاتباع والانصار ، فاذا قيل : شيعة الرجل عني بهم اتباعه وانصاره ، والشيعة تطلق على الجمع والتثنية والمفرد والمذكر والمؤنث ، وهي من المشايعة بمعنى المطاوعة والمتابعة .

وعند ذكر المعاجم لهذه الكلمة تقول : وقد غلب هذا الاسم على من يتولى عليا وبنيه عليهم السلام ، حتى صـــار اسماً خاصاً لهم ، فاذا قيل : فلان من الشيعة عرف انه منهم ، وفى مذهب الشيعة كذا اي عندهم .

ولم تتفرد معاجم اللغة بهذا القول ، بل شاع ذلك في كتب التأريخ والملل والنحل والكلام والفقه وما سواها ، حتى قال ابن خلدون فى مقدمته ص ١٣٨ : اعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه «رض»

وليس هذا مما يحتاج الى مزيد بيان ، وانما الشأن فى ان نفقه أن التشيع متى نبغ وابتدأ ، ومن الذي ابتدأ في استعمال كلمة « الشيعة » بهذا المعنى وقـــد يظن أن تعيين ذلك الزمن وذلك المستعمل قد يصعب على الباحث ، ولكن بعد الوقوف على ماجاء عن سيد الرسل صلى الله عليه وآله من قوله في حديث : ياعلي انك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين ، وقوله من حديث : واخذ ولدك بحجزتك واخذ شيعـة ولدك بحجزهم ، الى كثير من امثاله تعرف ان الذي خص هذه اللفظة باولياء اميرالمؤمنين المرتضى وبنيه بعد عمومها لكل تابع ونصير هو صاحب الرسالة ، ومنه تعرف ايضا ان للعترة شيعة واولياء من ذلك اليوم ، والمعروف منهـم من

اقطاب الصحابة من يشار اليهم بالبنان ، امثال سلمان والمقداد وابي ذر وعمار وحذيفة وجابر وابي ايوب وخلق كثير سواهم ، وقد استقرينا البحث عن هذا في كتابنا ـ تأريخ الشيعة ـ « ١ »

اذن فرسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي دعا الى هذه الفرقة وجعل لاهل البيت اولياء وشيعة ، اذا صح ان نسميهم فرقة تبعاً لمن يريد ان يسميهم كذلك ، وانما الصحيح ان الاسلام بنى على الولاء لآل البيت لحثه على اتباعهم والاعتصام بحبلهم والتمسك بعروتهم ، وتبشيرهم بحسن المنقلب ، والقرآن الكريم دل على ذلك في عدة آيات ، امثال قوله تعالى « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » وقوله سبحانه « قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » وقوله عز شأنه « وقفوهم انهم مسؤلون » وقوله تبارك اسمه « يأ يها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » وآية المباهلة وآية التطهير وغيرها الكثير ، وقد ذكرنا شطراً من هذه الآيات وقسما من احاديث صاحب الرسالة التي تدعو الى الولاء في كتابنا « الشيعة وسلسلة عصورها » « ٢ »

وبعد هذا فللشيعة فرق ذهبت كأمس الدابر سوى قليل منها ، وقد استوفاها النوبختي فى كتابه ـ فرق الشيعة ـ ونسب بعض المؤلفين فى الكلام والملل والنحل من أهل السنة لبعض تلك الفرق مقالات ظاهرة الشذوذ ، فاستهدف بعض الكتبة منهم غفلة أو عمداً ـ الشيعة عامة فرماها بذلك الشذوذ وجرى الخلف في القدح على سنن السلف ، وكيف خفي على أولئك وهؤلاء ان الشيعة فرق ومذاهب ، وان لكل فرقة آرآءها واقوالها ؟ومن الحيف والظلم أن تنسب للجميع آرآء اولئك الشذاذ منهم.

« ١ » قد خرج من المطبعة سنة ١٣٦٨ ،

« ٢ » لا يزال مخطوطا .

ونحن لا نريد من كلمة الشيعة فيما كتبناه عنهم ونكتبه الا الامامية خاصة، وهم الذين قالوا بامامة الاثني عشر من ابي الحسن الى ابن الحسن ، وهم اليوم جل الشيعة وأهل الرأي والتأليف والزعامة الدينية في الاقطار الاسلامية

ولا يتجه على الامامية ما قاله اولئك الكتبة في نقد الشيعة لنهتم فى الجواب، وان وجدتنا احياناً نجيب عن ذلك الغمز فلان فيه نبزاً وتوجيهاً الى الشيعة عامة دون تعيين لفرقة ، ولو استطردت بعض كتب الاوائل في الفرق والكلام والمقالات وبعض كتب الاواخر فيما تكتبه عن الشيعة لتجلى لك عياناً أن الغمز والنبز في الشيعة ، كان معنياً للاوائل وعلى ذلك الوتر ضرب الأواخر ، دون تأثم وتريث .

ألا قرت عيون من نصب العداء للامة المسلمة المسكينة التي اشغلها الخصام بينها عن الوقوف دون الاسلام دريئة عن الغوائل ، وألهاها الجدال بين رجالها عن أن تمثله للعالم كما يستحقه من اجلال واكبار ، وكما يدعو اليه كتابه من الحياة السعيدة والنظم الاجتماعية والاخلاق السامية ، فان الاسلام لم يكن دنيا يدعو الى الاخرى فقط ، بل يريد من بنيه ان يظهروا بمظهر الانسان الكامل فى خصاله وفعاله ، وان يجمعوا بين السعادتين والحياتين .

الامامة عند الشيعة

ما كان القول بالامامة بدعاً من الشيعة ، فان فرق الاسلام كلها قائلة بوجوب الامامة ، بل هي من الضرورات الفطرية عند الجميع بيد ان الشيعة اختصت بآراء فى الامام ، أهمها اختصاص الامامة بالاثني عشر علي وبنيه مع القول بعصمتهم ، وستقرأ بعض تلك المزايا الخاصة في هذا السفر .

ولو لم تكن الامامة فرضا لدى عامة المسلمين لما انقادوا للخلفاء الاول واتبعوا الملوك الذين تسنموا العروش باسم الخلافة كملوك امية وبني العباس وغيرهم ، ومنعوا من مخالفتهم والخروج عليهم والقدح فيهم ، لانهم خلفاء

واولو الامر الذين امر الله بطاعتهم كما أمر بطاعته وطاعة رسوله «ص»

ولو لم تكن الامامة ضرورية بالفطرة لما بادر شطر من الناس الى اجتماع السقيفة لنصب الخليفة عن النبي لئلا تبقى الامة بلا رئيس فتصبح فوضى و :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وهذا امر مع الفطرة يحكم به العقل ويعضده النقل ، لطفا بالعباد وحفظا للشريعة من العبث والتلاعب .

فكان من الظلم ان ترمى الشيعة بنبال الطعن لقولهم بالامامة ، بعد أن كانت مذهب أهل الاسلام عامة ، كما ان النيل منهم لانهم لا يرون امامة لسوى الاثنى عشر حيف آخر ، فلماذا لا يتجه الطعن لمن لا يرى امامة الاثنى عشر خاصة ورأى امامة غيرهم ، وما ذنب من ارشده الدليل الى امامة هؤلاء الاثنى عشر دون سواهم .

غير أن من الحق أن نسأل الشيعة عما عندهم من الدليل على هذه الامامة الخاصة ـ وليس في الحق مغضبة ـ وما زالت كتب الكلام من بدء البحث عن الامامة حتى اليوم تجيب على هذا السؤال بافصح بيان ، ولهم عليها ادلة مسطورة ، تضيق الصحف عن استيفائها ، ولا نريد ان نعيد ما ذكرته من الآيات والروايات دليلا على ماذهبت اليه ، فان فيه اعادة لبحث ملته العصور فليرجع اليها من اراد الاستقصاء وانما يهمنا ان نأتي هنا بما دل على الامامة من دليل العقل خاصة بموجز من البيان ، وسوف تقرأه من العناوين الآتية :

مبدأ الخلاف في الامامة

بعد اتفاق الفرقتين على ضرورة الامامة ،

رأت الشيعة انها بالنص من الله تعالى ، وليس لأحد ان يدعيها لنفسه أو يجعلها لغيره ، وان اجتمعت عليه الكلمة وتجمعت حوله الامة ما لم يكن منصوصا عليه .

ورأت أهل السنة مبدئياً انها بالاجماع وانها من حق الامة فلها وحدها اختيار من يقوم بهذا العبء الثقيل « * » .

ويبدأ هذا الخلاف من اول يوم رشح فيه عمر ابا بكر للخلافة في سقيفة بني ساعدة وعلى هذا الاساس امتنع علي عليه السلام عن البيعة وخالف القوم ورآها لنفسه ورأتها فيه فئة من المهاجرين والانصار انكرت على الشيخين عملهما ، واحتجت عليهما بالحجج الكثيرة . وما سالم المرتضى وسالم من معه الا بعد زمن طويل حينما رأى ان صلاح الاسلام في الاستسلام ، بعد ان اقام الحجة واوضح الحق .

ولم يكن استسلامه هذا تنازلا عن رأيه وعدولا عن التمسك بنص النبي صلى الله عليه وآله عليه. وانما ضرورة الموقف حفظاً لبيضة الاسلام لما عدم الناصر ألجأته ان يسكت مهادناً ويصبر على مضض كما يحكيه قوله عليه السلام في الشقشقية : « وطفقت ارتئى بين ان اصول بيد جذاء أو اصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه فرأيت ان الصبر على هاتا احجى فصبرت وفى العين قذى وفى الحلق شجى ارى تراثي نهبا . . . »

فدقق خاصة فى كلمة « ارى تراثي نهبا » لتعرف واضحاً انه لم يتنازل عن رأيه ولا قيد شعرة وما كانت مسالمته الا لضرورة الموقف مقهوراً

« * » انظر شرح النهج « ١:٢١٥ » وكتب الكلام للفريقين . ولكن أهل السنة لا احسبها تستطيع ان تثبت قولها هذا عملياً ، فان عمر بن الخطاب تعين بنص ابى بكر عليه وعثمان تعين بالشورى التي سنها عمر لستة نفر ، وصارت الخلافة في بني امية وبني العباس وغيرهم عهداً صرفاً من دون ان يكون للامة فيها رأي أو تدخل . . . وهكذا انقلبت عندهم عمليا من القول بانها من حق الامة وانتخابها الى العمل بالنص والتعيين ، وهم مع ذلك ينكرون على الشيعة لما رأوها بالوصية والعهد . ثم بعد ذلك التجأوا الى القول بانها تثبت اما بالاجماع أو النص فرددوا بينهما .

على التنازل عن المطالبة بحقه وكم له من كلمات من هذا الباب فى غضون نهج البلاغة توضح نهجه مع القوم .

استطردت هذه النبذة تأريخاً لاول خلاف طرأ فى الخلافة مقدمة للبحث ولسنا نريد ان نعيد تلك المناظرات فنكرها جذعة بعد ما هرمت ، وانما نريد ان نذكر آراء الشيعة فى الامامة ونوضحها مع وجيز من الدليل.

الامامة خلافة النبوة

تعتقد الشيعة بان محمداً المصطفى رسول رب العالمين ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وانه معصوم من الخلل في العمل والزلل في القول ، وان شريعته جاءت للبشر كافة ، كافلة لصلاحهم جميعا من جميع نواحي الحياة ، وانها لجديرة ـ لو هيمنت على الكرة الارضية ـ بتسيير نظامها وتنفيذ احكامها واقامة العدل والحدود ، فليس الرسول صاحب شريعة فقط ، بل يجمع اليها السلطة التنفيذية . ولا شك انه لاجدوى في تشريع النظام وسن الاحكام اذا لم يكن المشرع قديراً على تطبيق ماشرعه وتنفيذ ما سنه .

وتعتقد ايضا بان الامامة خلافة النبوة ، لأن البشر بعد صاحب الرسالة في حاجة ماسة الى من يعلم بالشريعة وخصائص احكامها ليعلمهم ما يجهلون ، ويقرهم على ما يعلمون ، وفي حاجة ايضا الى القائم بالعدل بينهم عن علم ، المقيم للحدود ، الآمر بالعرف ، الصاد عن الفساد ، الرادع عن النكر ، والمنفذ للاحكام التي جاءت بها الشريعة كما جاءت ، من دون تحريف وتصحيف ، وتبديل وتأويل .

ولو لم يكن للامة عالم بالشريعة كما جاءت ، ترجع اليه فى احكام الدين وتفسير القرآن الحكيم ، لاختلفت الكلمة فى الاحكام ، وتناقضت في الحلال والحرام ، وتعارضت في تفسير الايات ، والكشف عن المحكمات والمتشابهات ، كما وقع كل ذلك عند ما لم تتبع الامة ذلك العالم وصفحوا عنه

ولو لم يكن للامة راع يسوسهم ويأمرهم بالعدل والعرف ، وينهاهم عن الجور والنكر ، ويحملهم على ما جاء في الشريعة كما جاء ، لاصبح الناس فوضى في النظام والحدود والاحكام ، يتجاوز الرجل حدود الشريعة فلاأحد يصده ، ويخالف نظامها فلا يجد من يرده ، لعدم الراعي العام ، والمنفذ للاحكام ، أو لاختلافهم فى الحدود وتخالفهم في الحلال والحرام ، ولئن رأى بعضهم تأديب ذلك المخالف عارضه الآخرون ، أو استطاع أحد أن يقيم عليه الحد منعه الكثيرون ، درءاً للحدود بالشبهات ، أو جهلا بالشريعة ، أو قلة اهتمام بالاحكام ؛ كما جرى ذلك كله ، وجرى الخلف فيه على سيرة السلف ، وما كان ذلك كله الا لحيلولة الناس بين صاحب ذلك المقام وبين القيام بواجبه فى الامة .

ولو انبرى لنا ذو علم فقال : هل ترى الشيعة ان الرسول الامين صلى الله عليه وآله اهمل بيان كثير من الاحكام حتى ترك الامة تختلف لهذ الاهمال رأيا ومذهبا فيها، ولم يقم بما يحتمه عليه الارشاد والاصلاح من اعلامهم بتكاليفهم ، وهم فى حاجة الى هذا الاعلام ، فيكون قد ترك بعض وظائفه وواجباته ، التي القاها الجليل تعالى على عاتقه .

لقلنا له إن النبي عليه وعلى آله السلام جاء بالكتاب والسنة وهما وحدهما غير كافيين في بيان كل ما يحتاج اليه الناس ، من فروع الاحكام والحوادث المستجدة ومن ثم قال قوم بالقياس زيادة على الاجماع والعقل ، ليسهل عليهم استنباط الاحكام ، بل تعدى آخرون الى الاستحسان حين لم يجدوا في الحكم ما يقيسون عليه، وجعلوه من الاصول المقررة في الاستنباط

ولو كان الكتاب والسنة وحدهما كافيين في البيان ، وتعريف الناس احكامهم اجمع ، لما التجأ الباحثون عن الاحكام الى الاجماع والعقل بل الى القياس والاستحسان ، أو لو كانا وحدهما واضحي الدلالة لما اختلف في مفادهما المستنبطون ، وفي مدلولهما أهل الآراء والافهام ، فاصبحوا مذاهب وفرقا ، مع ان الكتاب واحد ، والسنة واحدة ، والصادع بهما

واحد ، وكل ما جاء في الشريعة واحد « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة »

ولا يسعنا ان نقول : انه ترك البيان عما تحتاج اليه الامة ، لان هذا الترك اخلال بوظيفته ، واهمال لنصح الأمة وارشادهم ، والاخلال والاهمال منه محال ، وانما نقول : إنه قام بجميع وظائفه ، وابان كل ما تحتاج اليه الناس ، غير انه اودع ذلك عند خلفائه ، وأبانه لاوصيائه ، واين انت عن قول ابي الحسن عليه السلام وقد وضع يديه على صدره « هذا سفط العلم هذا ما زقنيه رسول الله صلى الله عليه وآله » وقوله ـ حين سأله الناس في مرض النبي « ص » عما اسر اليه وقد اسر اليه شيئاً ـ « علمني رسول الله صلى الله عليه واله الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب » وفي حديث « الف الف باب » ويشهد له ايضا قوله عليه وعلى آله الصلاة والسلام : انا مدينة العلم وعلي بابها » وقوله : « اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي » وفي بعض نصوص هذا الحديث : « ولا تعلموهم فانهم اعلم منكم » ومثل قوله تعالى « ومن عنده علم الكتاب » وقد نزلت في علي عليه السلام ، والكتاب نفسه يقول : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ويقول : « وما فرطنا في الكتاب من شيء » الى كثير من امثال ذلك مما يدلنا على ان علم الرسول وعلم كتابه وسنته عند علي وعترته عليه وعليهم السلام .

فبيان ما جاء فى شريعته بجميع نواحي البيان مستودع عند باب علمه وعند الأئمة من بنيه ، يستودعه الاب عند ابنه واحداً بعد آخر ، ومن ثم تجدهم رأياً واحداً وعلما واحداً ، لا يختلفون فى شيء من علم الكتاب والسنة ، وانما اختلف الناس فى مدلولها من اول يوم دونهم ، لانهم لم يأتوا المدينة من الباب ، ولم يأخذوا علم الشريعة من الثقلين معا .

ولما وقفوا فى وجوههم صداً لهم عن نشر ما استودعه الرسول الامين عليه وآله السلام عندهم شملنا الحرمان لخوفهم من بيان ما لديهم

اذ كانت عصورهم كلها تقية ، وتمكن بسبب ذلك الدساسون ان يكذبوا وعجز الرواة ان يتقنوا كل ما رووا وسمعوا ، ففتحوا لنا باب الاجتهاد لنعرف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله بالطرق التي ارشدونا اليها ، ودلونا عليها ، وتركوها تراثا لنا .

فالشيعة الامامية لهذا ولغيره تعتقد بان الامامة خلافة النبوة ، وان الامام يجب ان يكون خليقا بالنيابة عن الرسول « ص » فى تينك السلطتين الروحية والزمنية ، وقديراً على القيام بها ، حتى لو كانت ولايته تحيط باطراف المعمورة اجمع ، كما كان عليه صاحب الرسالة «ص»

وما اختلفت الناس وصارت الى مذاهب فى العمل بالشريعة الا حين خالفته وحالت دون اداء وظيفته ، وأبت من قيامه بنصحهم واصلاحهم وما كانت تلك الحيلولة وذلك الاباء ليضعان من قدره ، أو ينقصان من حظه ، لان الامامة وهيمنتها ليسا الا اصالح العباد انفسهم ، وما الوقوف دون تصرفه الا تفويت منهم للسعادتين اللتين يرجيان لهم بنصحه وتعليمه

وما قيام الناس فى وجه الامام الا كقيام قريش وبعض العرب فى وجه صاحب الرسالة ليصدوه عن اداء رسالته ، وهل كان فى رسالته سوى اخراجهم من الظلمات الى النور ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاء الى السعادة ، ومن الجهل الى العلم ، وهل انقادوا لداعي الصلاح الا بعد الجد والجهاد ، والتعب والعناء ، وهل كانت دعوته باللسان ، واقامة الحجة بالبيان ، مغنيين عن الحرب والحراب .

فالامام ايضا لا يستطيع ان يقيم حدود الشريعة المحمدية الا ان يقوى على اشهار السيف واشراع الرمح ، واين العدة والعدد ، وما استطاع الا برهة قصيرة ايام رجوع الخلافة الى ابي الحسن وابنه الحسن عليهما السلام على ان الحواجز وعدم الانقياد التام من الامة حالتا فى تلك الايام القليلة عن اقامة جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وعن ازالة البدع والمنكرات ، ويشهد لذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: « لو قد استوت

قدماي من هذه المداحض لغيرت اشياء » هذا وهو صاحب المنبر والسيف، فكيف فى العهد الذي لا يسمع فيه له قول ولا يعمل له بأمر ، ولو كانت الخطب والحجج البيانية تعدل بالناس الى الحق ، وتسلك بهم الصراط السوي لكفى منها ما كان من ابي الحسن عليه السلام على منبر الكوفة ، وكان من بعضها ما هو بين يديك اليوم من نهج البلاغة ، بل لعدلت بهم من اول يوم فأغنت الرسول الكريم عن سل السيف والجهاد فى صبارة الشتاء ، وحمارة القيظ .

وسوف نأتي على شيءٌ مما يجب فى الامام من الملكات القدسية ، والصفات العلوية ، مشفوعة بموجز من الدليل عليها ؛ ومنه نستمد التوفيق والعون .

الامام اعلم الناس

فمن تلك الملكات التي ترى الشيعة ان الامام يجب ان يكون حائزاً عليها هو انه اعلم الناس ، وكيف لا يكون كذلك واليه تشد الرحال من كل حدب وصوب لطلب العلم عما تحتاج اليه الامة فى علمه والعمل به ، فان اليه المنتهى ، وعنده الوقوف ، وفى هذا أمران مرعيان احدهما علمه بالشريعة وما يحتاج اليه الناس وثانيهما اعلميته من سواه .

اما البرهان على الاول فاليك بيانه ، وهو ان الامام اذا لم يكن عالماً بالشريعة جليلها ودقيقها ، حدودها وعقودها ؛ فرائضها وسننها ، كما نزلت من السماء ، لم يؤمن خطأه ؛ وجاز عليه ان يقلب حدود الله سبحانه ويحكم بعكس ما جاء فى الدين ، فيوجب الحد أو القطع على البرئ ويبرئ من وجب عليه الحد أو القطع ؛ أو يسألونه عن الفرض فيفتي بانه سنة، أوعن السنة فيقول إنها فرض ، أو يجعل الدقيق جليلا على الناس ، أو الجليل دقيقا عليهم ، الى غير ذلك مما يجوز عليه فيه مخالفة الشريعة ، بل لامحالة يقع فى هذه المخالفات، ولو بعضها كما نجدهم أو جبوا الحد على

المجنونة والحامل ولولا ابو الحسن المرتضى ، لنفذ هذا الحكم ، كما نجدهم لا يعلمون الحد في السارق ولا يهتدون الى قسمة المواريث ولا يعرفون ما الكلالة ، ودرأوا الحد عن الزاني والقود عن القاتل بزعم الخطأ في التأويل ، بل جهلوا حتى معنى الاب في القران ، الى امثال ذلك مما يعجز القلم عن استقصائه ، ومثل هؤلاء كيف يكونون خلفاء الرسول « ص » في شريعته ، ومهيمنين على امته ، وحجج الله على بريته يسئل الناس يوم القيامة عن طاعتهم وولايتهم ، ويعاقبون على مخالفتهم ، وان كان في خلافهم الحق ، وفي طاعتهم الركوس في الضلالة ، افهذا الاصلاح الذي اراده الله لعباده في الامامة ، سبحانك اللهم ما اردت من بعث الانبياء ونصب الاوصياء الا الهدى لا الضلالة ، والا الحق لا الباطل ، والا العلم لا الجهالة ، والا السعادة لا الشقاوة ، والا العمل باحكام الدين لا مخالفة الشرائع السماوية فمن عذيرنا من مثل هذه الامامة التي ترجع بالناس الى الجاهلية العمياء .

على ان تصدي مثل هؤلاء للامامة ان كان مع وجود العالم بالشريعة فقد اغتصبوه مقامه ، واستلبوه منصبه ، وكان الجدير بهم ان يتخلوا عما ليسوا له باهل ، ومثلهم في حاجة دائمة الى التعلم والاهتداء والاسترشاد ، لا التعليم والاصلاح والارشاد «أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع امن لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون» فهم بالمأمومية احرى منهم بالامامة على انهم بارتقائهم منبر الخلافة يكونون غصابا لهذا المنصب ، وكيف يكون الغاصب اماما ، والله تعالى يقول في حكيم كتابه « لا ينال عهدي الظالمين » وهل اظهر من الغصب في الظلم .

واما ان كان الناس كلهم في الجهل بالشريعة شرعاً سواء فقد ضلت الامة عن الصواب ، وتاهت عن الرشد ، وضاعت جهود الرسول (ص) في دعوته ، وفي هدايته وارشاده ، حيث ترك الأمة من دون مرشد وهاد ، والشريعة من دون عالم ومبين ، فكيف اذن تكون حجة الله تعالى

بالغة والناس في عذر فسيح اذا لم يعلموا بالشريعة وجهلوا احكام الدين .

وهل يكلف الله العباد بشريعة لا يجعل لها حافظا من العبث والتحريف والتبديل ، عالماً باحكامها وحدودها ، وعليها مهيمنا ، أليس ذلك تكليفاً بما لا يطاق ، وهذا خلاف اللطف والعدل بعباده .

ولو كان الكتاب والحديث وحدهما كافلين بالحفظ والاحاطة والابانة ورافعين للضلالة والجهالة ، وجامعين للناس على محجة واحدة ، لما اختلف الناس فيها وعنها ، حتى صاروا فرقا ومذاهب ، وكل فرقة تزعم ان دليلها الى الحق الكتاب والسنة ، وانهما الرائدان الى ما اقتبسوه من رأي وعقيدة .

وكيف يكون حجة الله على العباد من يأخذ علومه من العباد ، وكيف يكون الراعي السائس من يستقي معارفه من الرعية ، على ان الرعية كالراعي جهلاء باحكام الشريعة ، ولا معلم يصدرون عنه ، وضلال ولا هادي ينقذهم ، أليس من هذا وغيره نعرف ان اللطيف تعالى لم يترك الأمة هملا من دون عالم يأخذ علمه من المنبع الفياض دون الناس ، وهاد مهدي بنفسه من دون ارشاد وهداية من عامة الناس ، لطفا بالامة ، وحفظا للشريعة عن التحريف والتبديل ، وبهذا العالم الهادى تقوم لله الحجة البالغة ، وتستبان المحجة الواضحة ، ومع وجود هذا العالم الهادي لا يسوغ بحكم العقل ان يتقدم عليه أهل الجهل والغباوة ، والضلال والعماية لان تقدمهم عليه اضلال للامة واضاعة للحقوق ، والله تعالى ما اراد ببعث الرسول « ص » الا الهداية وحفظ النظام والحقوق كاملة .

ثم ان الغرض من نصب الامامة للامة صلاحهم وتعليمهم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « قطع العلم عذر المتعلمين » فاذا لم يكن علم إلهي يكون حجة على الناس ، أو كان علم اخذه الناس من الناس فهو ناقص لا يصلح للحجية ، فان عذر المتعلمين واسع غير مقطوع ، والحجة عليهم قاصرة غير بالغة ، ولهم على الله كاملة .

واما الثاني أعي ان يكون الامام اعلم الناس ، فان الاعلم احق بهذه الزعامة والامة ، واولى بان يكون المصدر لمعرفة الاحكام ، والمسؤول عن الحلال والحرام ، واجدر في ان يقوم ببيان ما يجهل الناس من أمر الشريعة ، واقامة الحجة ، وتطبيق الحدود ، ومناظرة أهل الملل والنحل ، ومع وجدان الاحق الاحرى كيف يرضى العقل والوجدان في ان يدفعه عن هذا المقام من لا يدانيه في علم ولا يساويه في حجة ، ولا يلحق غباره في منطق ، فانه ترجيح للمرجوح على الارجح ، وترجيح احد المتساويين على الآخر بلا مرجح قبيح في نظر العقل فكيف بترجيح المرجوح على الراجح .

على انه لو كان هناك عالم جامع لصفات الكمال كلها وهناك من هو اعلم منه واجمع لم يسوغ العقل ان يكون الجامع امام الاجمع ، لان الجامع مفتقر الى الاجمع ، وكيف يجوز في التشريع ان يجعل الفقير امام الغني عنه ، والغني مأموما لمن هو محتاج اليه .

وصفوة القول : ان اعلمية الامام مما يحكم به العقل والفطرة ، وعليها سيرة العقلاء في اعمالهم وسائر احوالهم من تقديم الافضل على المفضول في كل أمر ، ولا يرون ان للجاهل أو للعالم على الاعلم تقدما ورجحانا لفوات الغرض والفائدة وهي صلاح الناس بتقديمها عليه ، بل لا يؤمن بتقديمها من الوقوع في الشطط والغلط مع وجود الافضل في كل شأن على ان دفع ذلك المحذور ممكن بتقديم الاعلم ، وما الذي يدعو لاقتحام هذا الحذر ، بل وللوقوع فيه ، مع القدرة على دفعه ، لان الفرض ان الاعلم موجود في الناس ، ومعروف بالقبيلة والبيت والبلد والشخص ، والوصول اليه لا يحتاج الى مؤنة كبيرة ، وتجشم مخاطر .

عالم بكل شيء

وبعد ذلك نقول : ان الامام لما كان مرجعاً لعامة الناس في كل شيء

من امري الدين والدنيا ويجوز ان يسألوه عن كل شيء ، فيجب ان يكون عنده علم كل شيء ، مما اليه حاجة الناس .

فلو سأله احد من أهل ملته أو من سواها من الملل فلم يجد عنده علم ما سأله عنه لم يره جديراً بمنصب الامامة العامة ، ولا صالحاً لان يكون خليقاً بالحجية على العباد ، وكيف يكون الوسيط بين الخالق والخليقة عارياً عن علم ما يحتاج الناس اليه ، وكيف يكون حجة على العباد ولا يبذهم بالعلم والفضل ، ولماذا كان حجة عليهم واماماً دونهم وهو وهم شرع سواء في المعرفة .

على ان السائل من ذوي الملل الاجنبية سوف لايجد حجة لهذه الملة ودعوى جديرة بالاجابة بعد أن يجد امامهم فارغ الحقائب من العلم اللازم ، وكيف تقوم عليه الحجة والامام ليس بحجة .

نعم انما الكلام في وجود هذا الامام العالم بالاشياء كافة ، ولا أحيلك على الحجج البعيدة المنال على وجوده ، فان الوجدان اكبر برهان على وجود هذا العالم ، فان في الامة ناساً رأوا الامامة لانفسهم دون الناس اجمعين ، ورأتها فيهم فرقة من الامة جمة العدد ، وكان الجدير ان تخبرهم الناس ليعرفوا اصدق ما يدعونه ، على انه ظهر لهم – والناس معرضة عنهم – من عجائب العلم ما طبق الخافقين وملأ الطوامير والصحف ، وما سألهم أحد عن شيء الا وجد الجواب حاضراً عندهم دون تلكؤ وتردد ، ومثل هذا العلم لا يحصل عليه المرء بالكسب والتحصيل فما هو الا مستق من المنبع الاعلى دون توسط البشر سوى الرسول صلى الله عليه وآله وهذا أمير المؤمنين عليه السلام على المنبر في مسجد الكوفة والمسجد غاص باهله يقول : « سلوني قبل ان تفقدوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء الا اخبرتكم به » ، ويضع مرة يديه على صدره كما مر ويقول : « هذا سفط العلم ... » وهل يجرأ على مثل هذا القول الا العالم بكل شيء بتعليم من علام الغيوب سبحانه ، الامين على نفسه من الزلل والعثار .

وقد دلنا ايضا على ذلك بعض آي الكتاب مثل قوله عز شأنه (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) وقوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقوله سبحانه « ولا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول » فالنبي صلى الله عليه وآله لا محالة يكون عالماً بكل ما جاء به الكتاب وظهيراً على غيبه تعالى فهو اذن عالم بكل شيء ، ومن كان الباب لمدينة علم الرسول كان عالماً بما في المدينة ، على ان الكتاب الكريم نفسه يقول : « ومن عنده علم الكتاب » وقد نزلت في علي عليه السلام فالعقل دلنا على وجوب ان يكون الامام في الامة عالماً بكل شيء ، والنقل والوجدان ارشدانا الى وجود ذلك الامام العالم .

علمه حاضر

بعد ان كان الناس في حاجة الى العالم بكل شيء مما يحتاجه الناس ليخبرهم عما يجهلون وعما يحتاجون الى عرفانه ، وليقوم بمناظرة ارباب الملل والنحل ، وجب ان يكون حاضر العلم ليكون حاضر الجواب عما يسألونه وعما يناظرونه به ، ولو أرجأ الجواب الى ان يأتيه العلم لكان الارجاء فشلا ووهنا في مقام الامامة ، ونقصا في الفائدة ، ونكوصاً عن الحجة بل ربما فات الامر المسؤول عنه اذا لم يكن الجواب حاضراً لديه ، وعلى من التبعة عندئذ ؟ كما لو سألوه عن امرأة حامل ماتت والجنين حي ، وانه هل يترك الجنين الى ان يموت فيذهبا معاً أو يشق عليه ، ومن اي الجانبين يشق ، فان السكوت وانتظار العلم يستلزم فوات الامر بموت الجنين ، أو يسأل عن مجنونة شهدوا عليها بالزنا أو حامل كذلك وقد قدما لاقامة الحد ، فاذا لم يكن عالماً بدرء الحد عنها موقتاً لقضى الامر ، ونظائر ذلك كثير لا يحصى .

بل قد يضل الناس بعد الهداية اذا عرفوا جهله ، وكيف يكون الحجة على ارباب الملل بهذا الجهل فلو أحجم عن مناظرتهم أو استنظرهم الى ان

يحصل لديه العلم كانت الحجة لهم لا له .

فلا يذهب بك الوهم الى ان علم الامام اذا كان حاضراً لم يكن فرق بينه وبين علم العلام تعالى ، لأنا نقول : إن علم الله سبحانه ذاتي وعلم الامام عرضي مفاض عليه من العليم عز شأنه ، ومن قوله عز شأنه : « ولا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول » تعرف ان المصلحة تقضي باظهار بعض رسله على الغيب ، وتعرف الفرق بين علمه سبحانه وعلم رسله ، وان علمه تعالى بالذات ، وعلم الرسل بالاظهار منه تعالى على علم الغيب

وقد استوفينا البيان عن علم الامام وحضوره في رسالتنا ـ علم الامام ـ واوردنا عليه من الحجج العقلية والنقلية ما فيه قناعة .

الامام ازهد الناس

إن للزهد مراتب تعرف من تفسير الزهد ، وبيان معناه في الآثار والاخبار :

« المرتبة الاولى » ان يراد من الزهد العمل بالواجبات والارتداع عن المحرمات .

« الثانية » ألا يأسى على مافات ، ولا يفرح بما هو آت ، كما هو منطوق الآية الكريمة « لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »

« الثالثة » ان يكون فوق تينك المنزلتين خشن الملبس جشب المأكل

« الرابعة » ان يكون فوق ذلك كله ، لا يعرف في الحياة حبيباً غير ما يحبه الله تعالى ولا بغيضاً غير ما يبغضه الله سبحانه ، يتحرج في حلال الدنيا ، ويعرض عن حرامها .

وعلى ان تكون هناك معان للزهد ومراتب اخرى ، ولسنا في مقام تعريفه وتحديده والافاضة عن تحقيقه من كل الوجوه .

إن الزهد في الشيء لغة الاعراض عنه ، فالزهد في الدنيا الاعراض عنها ، فاذا ظهر على الامام حب الدنيا للدنيا اقتدت به الامة واتبعته في

هذا الحب ، لانه القدوة المتبع ، فيصبح الناس كلهم معرضين عن الدين ، مقبلين على الدنيا اقتداءً بامامهم ، واتباعا لسيرة مقتداهم .

كما ان الناس مراتب في الحال ، فبين غني ذي سعة ، وبين فقير ذي متربة ، وبينهما متوسطات ، فقد يوجد في الناس من لا ينال القرص من الشعير ، ولا يعرف الشبع من البر فاذا رأى ذو المتربة امامه مقبلا على اللذات ، متشاغلا بالشهوات ، مختاراً لنفسه ارغد العيش ، احتقر نفسه ورأى الفقر شعار المنبوذين ، ومن لا قيمة له في الحياة ، لاشعار ارباب الايمان ، وأهل الصلاح ، فكم بهذه الرغبة يكسر نفساً عزت على بارئها ، وكرمت لدى صانعها ، وما الفقر الا خلق اختاره الله لبعض عباده وليس الغنى كالاخلاق الفاضلة التي لا تحصل الا بالرياضة والاكتساب ، فيذم تاركها لتفويته الفضيلة بالاختيار كما ان الفقر لم يكن كالاخلاق السافلة التي يرتادها المرء بالاختيار فيذم على ارتكابها، فيكون الغنى فضيلة ، والفقر رذيلة ، وانما هما ببسط الله وتقديره « الله فضل بعضهم على بعض في الرزق » وما اكثر ما نسج الكتاب الحكيم من آيات تفصح بان الرزق من تقديره وتدبيره ، جلت قدرته ، وعظم تدبيره ،

ولم يكن الضرر في اظهار الامام الرغبة في الدنيا استذلال أهل الفقر وحسب ، بل يرفع بذلك انوف أهل الثروة والوفرة ، فيكون التطاول عند ذلك في الناس بالاموال لا بالاخلاق والصلاح .

ثم اذا كان الامام من ذوي الرغبة في الدنيا فلا يجمع حوله الا امثاله، فاين يكون مقام الفقراء والمساكين ، ومن الذي يفتح لهم بابه ، ويوسع لهم مجلسه ليقوم بحقوقهم وقضاء حوائجهم ، وما الامام الا من تساوت الرعية لديه ، وتوازنت عنده .

فلهذا وغيره رأت الشيعة ان الامام يجب ان يكون ازهد الناس ، ليرتفع الفقير بمشاهدة زهد الامام عن ذلة الفقر ، ويتطامن الغني بمرآه عن طغيان الوفر ، وينصرف الناس الى اكتساب الفضائل الحقيقية

والتقوى تقرباً لامامهم ، وطلباً لرضى خالقهم .

على ان الامام الذي اوجبت فيه الشيعة تلك الفضائل العلوية لا بد ان يختار الزهد لنفسه لانه فضيلة سامية ، فان الامام الذي عرف الله تعالى حق معرفته ، وتجلت لديه عظمته، اتجه بكل حاسة وجارحة وهاجسة اليه جل شأنه ، فكيف يشغله شيء من نعيم هذه الدنيا الزائلة عن خدمته سبحانه ، وعن التفرغ لعبادته ، فنفس الامام وحدها لا ترى غير الزهد شعاراً ، فكيف اذا كان فيه انعاش لذوي الفاقة ، ودفع لما يجدونه من الوحشة والذلة ، وتواضع لذي الغنى والثروة ، وكسر لما يجدونه من الكبرياء والعظمة ، ودفع لما يحدثه الغنى من البغي والفساد ، وبذلك يستطيع ان يجعلهم صفاً واحداً ، لا يرتفع الغني لغناه ، ولا يتطامن الفقير لفقره فيتساوون كأسنان المشط ، شأن الاخوة المتحابين ، بل « انما المؤمنون اخوة » .

فالزهد مع ما فيه من تلك الخلال الغالية اجمل وسيلة فى الامام للوحدة الاجتماعية ، وتساوي ذوي المراتب المختلفة فى الغنى والفقر ، والرفعة والضعة

وكفانا اعتباراً لهذه الخلة العلية في الامام سيرة سيد الرسل ، وسيرة اخيه ووصيه الامام المرتضى عليهما وآله السلام ، واين انت عن قول ابي الحسن عليه السلام مفصحاً عن سيرته في كتابه الى عثمان بن حنيف عامله على البصرة : « ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي الى تخير الاطعمة ، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى واكباد حرى ، أأقنع من نفسي بان يقال أمير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر ، أو اكون اسوة لهم في جشوبة العيش ، فما خلقت ليشغلني اكل الطيبات »

ويقول فيه : « وايم الله يميناً استثني فيه بمشية الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها الى القرص اذا قدرت عليه مطعوما ، وتقنع بالملح مأدوما »

فلا يريد بهذا البيان أمير المؤمنين عليه السلام ان يعرب لنا عن سيرته فى الحياة وحسب ، بل يريد أن يعلمنا أن الامام يجب أن يكون على مثل

هذه السيرة مع الرعية ، وان ينظر الى الدنيا بنظر الازدراء والازورار لئلا تتغلب عليه لذاتها ، فانه اذا كان شغوفاً باللذات ، لا يهتم بشؤون ذوي الفاقات ، ولا يشاركهم في المكاره ، ولا يكون أسوتهم فى الجشوبة وقدوتهم في الخشونة .

ولقد مثل لنا الدنيا ابو الحسن عليه السلام وخستها لديه بمثال إخال انه لا يؤتى فى تهجينها واستقذارها بنظيره ، فقد قال في كلمه القصار :

« والله لدنياكم هذه اهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم »

قل لي بوجدانك من يطيق ان ينظر عظم الخنزير فى يد المجذوم فضلا من ان تهش اليه نفسه ، الله اكبر ما احقر الدنيا واقذرها فى عينك يا ابا الحسن ، وما اقدرك على تصويرها بما تنفر منه الطباع وتشمئز النفوس حتى وان كانت النفوس سبعية ، والطباع بهيمية .

حقاً إن الامام الذي يريد ان يصلح الأمة ، ويرفعها الى اوج السعادة من تعزب نفسه عن اللذات ، وتتجنب الشهوات ، ومتى استهوته هذه المظاهر الخلابة لم يقو على التفرغ للاصلاح ، وجعل ذي المسغبة قنوعاً برزقه ، وذي الثراء قابضا على شكيمته .

إن البشر لو ترك ونفسه لا يصلح نفسه ولا يرتدع بذاته « إن النفس لأمارة بالسوء » الا ان يكون منه له مصلح رادع ابداً ، ومذكر زاجر دوماً ، واذ تساوى الناس فى الاخلاق والملكات لم يقتدر بعضهم على اصلاح بعض ، فوجب ان يكون المصلح صالحاً ، والرادع مرتدعاً ، قبل ان يوقف نفسه للاصلاح والزجر والتذكير والوعظ ، وهذا أحد البواعث لإرساله تعالى الرسل والانبياء وجعله لهم الاوصياء والخلفاء .

اعرف الناس بالسياسة

لا يذهب بك الوهم الى ان المعني بالسياسة فى لسان أهل العلم والدين ما يفهمه اليوم الناس منها ، وهي المكر والخداع والحيلة والمغالبة والمصانعة

بشتى الاساليب ، بل السياسة عندهم تدبير أمر الامة ، وادارة شؤونها على النهج الصالح والعدل الصارم بما فيه صلاح الناس دنيا واخرى .

والامام الذي يختاره الله تعالى للامامة واصلاح البشر لا يليق به وبمنصبه ان يخادع ويماكر ويحتال ويصانع ؛ وإن الدين ليأبى الاحتيال بما يخالف الدين باسم الدين ، فان مخالفة الدين لا تكون من الدين والدين

فلو كان الامام جاهلاً بهذه السياسة الصحيحة لافسد الامة من حيث يرجو الصلاح اولا يرجوه ، إذ لا يؤمن من ان يسيء التدبير فيأمر في مقام النهي ، وينهى في مورد الامر ، أو يعتمد على اناس آخرين فى السياسة ، وكيف يؤمن من ان يكونوا جهلاء مثله ؛ أو أنهم لا يراقبون الله في عباده ، فتعبث اهواؤهم وآراؤهم فى النـاس ، ويعيثوا فساداً في الارض ، ويتصرفوا في الدين والامة جهلاً فى مواطن التصرف ، او اتباعاً للهوى والميول النفسية ، فيكون بذلك الفساد ، وقد اراد الله تعالى الامام للصلاح .

ولربما يخال بعض أهل الجحود أو البعد عن سياسة الدين ان ابا الحسن عليه السلام كان بعيداً عن السياسة ، عن تدبير البلاد ، ويحهم لامهم الهبل والعبر انهم جهلوا أو تجاهلوا الحق والحقيقة ، ألم يعلموا ان المرتضى كان من رجال الدين لا الملك ، فان كانت السياسة الاحتيال والاغتيال فما ابعده عنها وما ابعدها عنه بعد السماء عن الارض ، وان كانت السياسة ادارة البلاد ، وتدبير العباد ، على ما يدعو اليه صالحهم ، وتتطلبه شريعة الحق ، فان المرتضى هو السياسي الاوحد الذي لم تلد الايام ولن تلد مثله الا ان يكون اماماً جمع من الصفات ما جمعه ابو الحسن (ع) ومن اعرف منه بالدين وتطبيق احكامه ، حسب ما نزل من السماء .

وإن اكبر ما اخذوه على أمير المومنين عليه السلام فى سياسته انه لم يبق معاوية على ولاية الشـام ، وان عزله اثار تلك الحرب الضروس ، التي ما رأى العرب مثلها من قبل ، أوما علموا ان الدين يمنعه من اقرار معاوية

على الولاية ، وكيف يرتضى الدين مصانعة أئمة الضلال ، ومجاملة أهل الغدر والنفاق ، ولو صانع مثل معاوية لاختلط الحابل بالنابل ، ولما امتاز المؤمن عن المنافق ، ولا المطيع من العاصي ، وانما فعل الرسول « ص » ذلك بدء الاسلام ، لان الناس بعد لم تعرف حقيقـــة الاسلام ولم تتدبر احكامه ، فلو قاوم المؤلفة قلوبهم وحارب المنافقين لم تنجح دعوته ولم تكثر انصاره ، ولم ينتشر الاسلام بسرعة ، واما وقد ظهر أمر الله فلا موطن للتأليف ، ولا موضع للمصانعة ،، وليت شعري متى تطبق احكام الدين ، ومتى تعمل الناس بالشريعة ، اذا سار اولياء الامر على المداهنة الى النهاية .

على انه لو جوزنا لابي الحسن عليه السلام مصانعة معاوية للملك ودفع القتال لكانت السياسة الملكية تدعو الى فصله وعزله ، أليس معاوية من الرجال الذين عرفوا بالغدر ونقض العهود والمواثيق ، فاذا اقره ابو الحسن فانتقض عليه معاوية كانت الحجة اذن على ابي الحسن حين ارتضى معاوية الولاية ولم يرتضه معاوية للخلافة .

ولو اقره ثم عزله كما اشار بذلك بعض اصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فلم يبرح معاوية من الشام فبماذا يخرجه منها بغير القتال ، وأهل الشام اطوع لمعاوية من الظل لذي الظل ، والحجة اذن قائمة على ابي الحسن باقراره لمعاوية وبعزله معا .

ولقد غاب الناس عن أمر لم يغب عنه معاوية ، إن معاوية كان يترقب اليوم الذي يفتك فيه الناس بعثمان ليتخذ الطلب بدمه ذريعة للسلطـان ، ومن ثم سكت عن نصرته ، وكان قديراً على الدفاع عنه ، وهو أيسر له من حرب صفين وابقى على النفوس والناس ، فلو اقره أمير المؤمنين على الشام لم يقنع بالولايه ، لانه يعلم ان ابا الحسن لا يتفق معه ، ولا يسلس له قياده ، وكيف يجتمع الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وما الذي يؤمن معاوية من ان يسرع ابو الحسن لفصله ، على ان طلبه بدم عثمان فرصة ثمينة لنيل الملك ، وقد امكنت ، فلو فاتته فمتى يستيقن بان يظفر بمثلها بعـــد اليوم ،

والوقت فرص .

فكان معاوية لا يرضخ لخلافة ابي الحسن ابداً مهما كلفه الامر ، وهو يعلم من ابو الحسن فى صلابة عوده ، وهو الذي لا يعجم عوده مخادعة ومصانعة ، ولو اقره ابو الحسن لا نتقض معاوية لامحالة ، ولثارت هذه الحرب من دون ريب ، فما الفائدة اذن فى هذا الاقرار ، وكيف اذن يقره ابو الحسن وهو يعرف من معاوية وما نواياه؟ فتكون عندئذ الحجة لمعاوية باقرار ابي الحسن له ، وكيف يجعل المرتضى سبيلا لمعاوية عليه .

أليس من السياسة الملكية اذن ان يأبى أميرالمؤمنين عليه السلام من ابقاء معاوية فى الشام واقراره على الولاية ، وان فتح عليه هذا الامتناع باب الحرب ، واين عنه هذا الباب رضي أو أبى .

وهذه كلمة جاءت بها مناسبة المقام عفواً ، فانا لا نريد الاستقصاء في الذب عما ينبزون به سيد الساسة الإلهيين ابا الحسن عليه السلام ، فان علمه بالسياسة أجلى من ان يخفى على ذي بصيرة ، واين انت عن قوله وهو الصادق : « لولا الدين لكنت ادهى العرب » وعن قوله : « قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله » .

نعم ان تقوى الله لعمر الله هي التي منعته عن مصانعة أهل النفوذ ، ومجاملة أهل الغدر ، ومجاراة ارباب الزيغ والارتياب ، حتى تركتهم طمعاً فى الامارة والحطام ، وحسداً وحقداً ، وجزعاً من الحق ، ينكث منهم قوم وتقسط طائفة ، وتمرق أخرى ، ويعتزل آخرون .

إن الناس اعتادوا على خلط الحق بالباطل ، ومصانعة ذوي الجاه والرياسة ، ومداهنة الامراء ، فكيف ترضخ نفوسهم لان يحملهم امير النحل على المحجة البيضاء ، والتساوي في المنزلة والعطاء فلما لم يجدوا مغمزاً في أميرالمؤمنين عليه السلام قالوا : إن علمه بالحق وعدم المداهنة لوجوه الناس ، والمصانعة لارباب النفوذ خرق للسياسة ، وبعد عن التدبير .

واين هم عن كتبه الى عماله فى البلاد والخراج وامراء الجيش فانها

— سوى سيرته واعماله — تنبيك عن علم في السياسة والتدبير لا يماثله فيه بشر ، وكفى منها عهده الى مالك الاشتر رضوان الله عليه ، ذلك العهد الذي جمع الى فنون العلم بديع البيان ، والى سياسة الملك احكام الدين ، فتراه فيه عالماً ربانياً ، وخبيراً سياسياً ، حنكته التجارب ، وقاضياً عادلا ، وقائداً محنكاً ، واميراً مهابا ، وبليغاً معجزاً ، ولعمر الحق ان هذا العهد وحده لدليل على ان ابا الحسن امتاز بكل فضيلة ، وبذ بكل خلة ، فلا يماثله بل لا يدانيه بشر ممن عرفته الناس واختبروا سيرته .

الامام المثل الاعلى

ان الله عز شأنه حين خلق الخلق لم يتركهم هملا ، فانه لما استحال ان يشافههم ويشافهوه جعل بينه وبينهم سفراء فى تبليغ اراداته واوامره ، وأولئك السفراء هم الرسل والانبياء ، فالانبياء والرسل امناء الله سبحانه على دينه وخليقته ، وما اختارهم لاستيداع الدين ورعاية البرية الا لما علمه منهم من الميزة على سائر البشر فى العقول والملكات النفسية ، ولو لم يكن لهم تلك الميزة لما قووا على تحمل اعباء الرسالة ، وكيف يقوى على احتمال هذه الاعباء عامة الناس ، وهي تحتاج الى مدارك سامية ، وعقول راجحة ونفوس زاكية ، وجهاد دائب من دون كلل ولا ملل .

وإن البشر لا يسرع الى تلبية الدعوة ، وتصديق الرسل ، لان الرسل تجيء باحكام ونظام يخالف ما عليه الناس حين الدعوة ، فكم كذب الامم انبياءهم ، وجهدوا فى ايذائهم ، واجترأوا على قتلهم ، واين من يحتمل من غثاء الناس هذا العناء موطنا نفسه على الاذى الدائب بل وعلى القتل في سبيله تعالى حتى لو كان من ارقى الناس حجى وادراكا ما لم تكن لديه تلك الملكات الذاتية .

واذا قضى الرسل ما عليهم وقضوا نحبهم ، فالناس بعدهم اما ان يكونوا هملا فى النظام والاحكام ، أو يكونوا قد بلغوا منازل الانبياء

فى العصمة والمعارف ، أو يكونوا ملحوظين بعين عنايته ولطفه كما كانوا على عهد المرسلين ، فان كان الأول فلا تكليف اذن ولا حرمة ولا وجوب فهم كالنعم السائمة ، وهذا لا يقول به أحد ، لان كل امرئ يعتقد انه مكلف لم يرتفع عنه التكليف ، وان كان الثاني فهم في غنى عن المرشد الهادى ، وكيف يكون هذا ونراهم في جهل مرة وعلم اخرى ، وضلال تارة ، وهدى طوراً ، ولو كانوا على مثال الانبياء لما تخالفوا وسلك كل واحد واديا ، وان كان الثالث فلابد ان يكون اللطيف تعالى قد جعل فيهم من يقوم بوظائف الرسل من النصح والتعليم والارشاد ، وهؤلاء هم الاوصياء لانهم نواب الرسل وخلفاؤهم .

فهذه الامة الاسلامية لا تختلف عن تلك الامم السالفة ، لان الناس لم يصبحوا كالرسول في الملكات والمعارف ، ولم يهملوا من التكاليف ، ولماذا جاء الرسول بتلك الشريعة الواسعة ، فلا يعدو أن يكون فيهم كما كان للرسل اوصياء ينوبون عنه فى التعليم والارشاد والنصح والهداية ،

ولا بد اذن من ان يكون النائب عن الرسول في وظائفه يستطيع النهوض باعباء الاصلاح ، وتكون الامة سعيدة باصلاحه ، ومثل هذا يجب ان يكون المثل الاعلى في خصاله وفعاله ، ولو كان كالناس لم يقو على اصلاحهم ، ولم يكن القدوة والاسوة لهم ، ولم يحصل الغرض من نصبه اماماً للناس ، وسائساً وقائداً ، وناصحا وامينا ومصلحا .

وقد ذكرنا آنفا بعض مايجب فيه ، وسنذكر فيما يأتي بعضه ، ونذكر ههنا شيئاً غير ما سبق ويأتي ، فنقول :

إن الامام يجب ان يكون امين الله في الارض ، امينا على الدنيا والدين ، لان الدين يحتاج الى الحفظ ـ وحفظه في معرفته وادائه ـ ، ولان الدنيا تحتاج الى السائس المدبر ، العارف بالسياسة والتدبير ، وهل يقوى على هذه الرعاية غير العالم بالدين المؤتمن عليه ، العارف بتسيير احكامه ونظامه .

ويجب ان يكون اعدل الناس في الحكم والسيرة ، لان جور الامام ان كان عن جهل أو خطأ أو نسيان او سهو فقد فاتت المنفعة من امامته والفائدة من حكومته ، لان الغاية من نصب الامام صلاح الناس واصلاحهم ، واين تكون هذه مع الجور، واي فرق اذن بينه وبين سائر الناس من رعيته، ولماذا اختير للامامة دونهم اذا كان واياهم شرعاً سواء في العدل والسيرة ، وان كان عن علم وعمد فالامامة اذن اريدت للفساد لا للصلاح والرشاد ، والامام عندئذ من يريد السوء في البلاد ، لا الخير للعباد ، وهل ياترى يجعل الله سبحانه للامامة من يتعمد الظلم لبريته والجور لخليقته، وهو القائل تعالى «لاينال عهدي الظالمين» والجور من اقبح الظلم.

وكفانا اعتباراً للعدالة فى الامام واعدليته من جميع الانام سيرة الامام المرتضى عليه السلام ، فانه كان يقضى على نفسه قبل ان يحكم على رعيته ، وما عرف الناس احداً أقضى بالعدل عن علم ودين كأبي الحسن عليه السلام فانه ما شك في حكم ، ولا ارتاب في قضاء ، ولا نبا فى سيرة ، غير ان الناس لاتريد العدل ، ولا تقبل المساواة فى الحقوق ، كالمريض يابى الدواء وفيه شفاؤه بل الاحب اليهم ، والاقرب الى مستواهم ، والقدير على تاديبهم ، من يعمل بالجور ويأخذ البريء بالسقيم ، ويعاقب على الظنة والتهمة ، ويأخذ المال من غير حله ويضعه في غير محله ، الى غير ذلك مما قاومه العدل والدين .

وما كان أمير المؤمنين بعاجز عن تأديب الناس واصلاحهم على النهج المألوف عند الناس ، ولكنه صرح في بعض كلماته بان ذلك يستلزم إفساد نفسه ، لأن الظلم يجنى فيه الانسان على نفسه قبل الناس .

ويجب ان يكون اشجع الناس ، اما الشجاعة فلان الامام رئيس المسلمين وحصن لهم وفئة ، واذا كان الرئيس فزع القلب ، والحصن غير حصين ، والفئة ضعيفة ، وفر الناس والتجأوا اليه ، كان في الفرار أسبقهم، وفي الهزيمة قبلهم ، فكيف حال الرعية اذن ، الم يكن الامام عندئذ على

انهزامهم عونا وظهيراً ، بدلا من ان يكون دريئة ونصيراً « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله » فيكون هذا الامام قد عاد بالخيبة من رب العباد ، وهل ياترى يجعل الله اماماً على بريته يكون معرضاً للغضب والنار ، والاياب باللعنة والعار .

واما الاشجعية فلان الامام هو الزعيم كما قلناه ، فاذا كان فيهم من هو اشجع منه كان الاشجع احق بمقامه ، لانه اربط لقلوب المسلمين ، واقوى على حمايتهم واثبت لهم فى حومة الحرب ، واذا تنازل هذا الامام الشجاع مع من هو اشجع منه في حومة الوغى لم يثبت امام الاشجع ، فيكون بالفرار خليقا ، وبالغضب من الله تعالى حقيقا .

هذا من ناحية البرهان ، واما الوجدان ودلالته على وجود الامام الاشجع فيكفيك منه مواقف المصطفى ومشاهد المرتضى عليهما وآلهما السلام فانه لم يكن أحد في العالم أرسى منهما قدماً في الحروب ، واقوى جنانا عند تطاير القلوب من رهبة النزال والقتال ، ولو فرا من الميدان لما ثبت احد من الناس ، لان نظر الجند الى القائد العام ، ومتى يثبت الجند اذا اطلق القائد رجليه للريح ، وكم فر المسلمون والنبي صلى الله عليه وآله ثابت بمكانه وعلي يذب دونه .

وان اشجع الناس من يقول : والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ، ولو امكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها ، وان اعمال أمير المؤمنين ومواقفه لتصدق هذه الاقوال .

وان حادثة الطف اغنت عن سرد الادلة والشواهد ، وعرفت الناس كيف يجب ان تكون الشجاعة ورباطة الجأش ، وكيف يجب ان يكون الامام

إن امرأ يجتمع عليه ذلك العدد الجم ، وهو بتلك العدة اليسيرة ، وهو لا يكترث بعديدهم ، ولا يفزع لدويهم ، وقد ملأ اعداه القفار محيطين به احاطة السوار بالمعصم ، وقد حالوا دون ريه من الماء ، وقد التهبت اكباد صبيته ونسائه ناراً من الظما ، ويرى افلاذ كبده ، وصفوة اهله وصحبه

يتهاوون على الصعيد دونه ، وقد البسهم الضرب والطعن ثيابا قانية، ويرى حوله عقائل الرسالة، ومخدرات الامامة ، وقد اذهلهن الفزع واشجاهن فقد الاحبة ويعلم ما سيلاقين بعده من جور اللئام ، وجفوة أولئك القساة وهو لا يزداد الا رباطة جأش ، وثبات قلب ، واستنارة وجه، انه وايم الحق لفوق مستوى البشر من قوة النفس والقلب ، فلا غلو لو قلنا : ان ما كان عليه الحسين عليه السلام فوق الشجاعة البشرية .

وكان بوسعه ان يفر هاربا حين شاهد غدر أهل الكوفة قبل ان يحبسوا عليه الطريق ، أو يستسلم مبايعا ، وله المكانة العالية بعد البيعة عند الامويين ، وما كانت تلك التضحية آخر دواء يعالج به الموقف ، اللهم الا ما كان من معالجة السقام الديني، وحياشة بني الاسلام الى شريعة الحق ، وتعريفهم من هم ارباب الدين ، ومن هم أهل البدع والمنكرات .

فاي شجاعة كانت شجاعتك يا ابا عبد الله ، الشجاعة التي حيرت الالباب وابهرت العالم ، بما لم يسمع بمثله ، ولم يخلد التأريخ ولن يخلد عمر الدهر نظيره ، واي امرئ مثلك صار سلوة لأهل النوائب والمصائب ، واسوة وقدوة للاباة ، ومثالا للتضحية في سبيل الحق والدين ، هذا هو الذي يجب ان يكون المثل الاعلى فى الفضائل ان كنت تريد ان تعرف من يجب ان يكون الامام .

ويجب ان يكون الامام اوسع الناس صدراً ، لان عبء الامامة ثقيل جداً ، أليس الامام معلم الجاهل ، وهادي الضال، وراعي الامة ،والقائم بحقوقها ، وخصم الظالم ، وعون المظلوم ، والحجة للدين وعلى اعداء الدين باللسان والسنان ، اليه يلجأ الفقير ليخفف عنه وطأة الفقر، والثكلى ليبرد عليها حرارة المصاب ، والايم ليدفع عنه بالزواج آلام العزوبة ومخاطر الشهوة ، واليتيم لينفس بالعطف عليه هم الحاجة وذل اليتم ، يجهد في الاصلاح بين الخصوم ، ورفع التعادي بين الناس ، الى غير ذلك من وظائف الرئيس العام وراعي الامة، الذي يجمع الى رياسته الدينية رياسته

الدنيوية ، والى منزلته الروحية القوة التنفيذية والسياسية .

فلو كان يسأم من المراجعة والتردد ، ويتبرم من السؤال والالحاف ، ويهمل الدعوة والاصلاح ضجراً من تعب الإفهام ، ومن أعباء الجد والجهاد ، لما استطاع ان يقوم بوظائف زعامته ، ويؤدي واجب امامته ، وان حرج الصدر من تحمل هذه الاعباء الباهظة ، واداء المهمات المجهدة ؛ ولكنه اذا كان واسع الصدر ، بل اوسع الناس صدراً ، قوي على اداء تلك الواجبات ، وصبر على هاتيك المحن والامتحانات .

ويجب ان يكون احسن الناس اخلاقا ، لان الامام كما قلناه : مهبط الامة جمعاء ، فمن سائل علما وآمل رفداً ، ولائذ به من صولة الدهر ، وعدوان أهل الجور ، ولاجئ اليه لتنفيس همه ، أو إصلاح شأنه ، ومن متألم من خصومه ، وراج انصافه من ظالمه، ومتوقع تخفيف آلام نوائبه ، والاستعانة به على مصائبه ، الى ما سوى ذلك مما يفزع الناس به الى الرئيس العام ، فلو كان الامام فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حوله ، فمن يقوم عندئذ بتلك المهمات ، ويحتمل عبء تلك المسئوليات ، ولكنه اذا كان حسن الاخلاق بل احسن الناس اخلاقاً انشرح لهم صدراً وقابلهم بالبشاشة والبشر ، فاجتمعوا اليه ، والتفوا حوله ، وكشفوا له عن حوائجهم ، وابدوا نوازل شدائدهم ، فكان الخليق بان يكشف عنهم سحائب الهموم ، وغموم الاحزان ، وهذه احدى الخصال التي يجب ان يتلفع بها الامام .

هذه بعض تلك الصفات الفضلى التي يجب ان يكون عليها الامام ، ومما ذكرناه وسنذكره من البرهان على وجوب ما يرتدى به من الخصال، تعرف الوجه في الخلال الاخرى التي لم نذكر لها عنوانا خاصاً ، مثل ان يكون اورع الناس واخوفهم واعبدهم ، وادلهم على الرشاد ، واردعهم عن الفساد ، وانصحهم فى الله لعباده ، وارفق الناس بالناس ، واسخاهم كفا، وارقهم على المؤمنين قلبا ، واقساهم على الكافرين جنانا ، الى ما سوى

ذلك من الصفات الفاضلة التي يجب ان يكون فيها الامام اسمى النـاس ؛ وما ذاك الا لانه امام الناس ، ويجب ان يكون اغنى الناس عن الناس ، والناس فى حاجة اليه دائماً .

الامام افضل الناس

إن افضلية الامام تغنى عن استطراد ما سبق من الصفات ، والبرهان عليها يكفي عن البرهان على جميع ما سلف ، وانما استطردنا تلك الخصـال والادلة عليها ليعرف الملأ عظيم منزلة الامام وجليل مقامـه ، وليتضح الدليل على كل واحدة واحدة من تلك الفضائل خاصة ، وان قام البرهان عليها عامة .

فافضلية الامام من جميع الرعية والمأمومين امر يحكم به العقل والوجدان لما قلناه ونقوله : من ان الامامة خلافة النبوة ، ووظيفة صاحب الرسالة ، وان الامام رائد الامة الى الصلاح ، ودليلها الى الرشاد ، وحافظ حوزة الدين ، الداعي الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وحجة الله البالغة على خلقه ، ومفزعهم في الملمات وملجأهم فى المهمات ، امين الله في ارضه ، عز المؤمنين ، وبوار الكافرين ، الصاد عن الفساد ، والرادع عن البدع والمنكرات ، الى غير ذلك من النعوت التي يتطلبها مقامه الارفع فى نيابته عن الرسول الامين ، وقيامه بوظائفه الجليلة .

... لم يكن الامام افضل رعيته في العلم والحكم والعزم والحزم ، والرأي والتدبير ، والهدى والسداد ، والتقى والرشاد ، والعفة والصلاح ، والجود والامانة ، والعدل والسياسة ، والشجاعة والرعاية ، والعبادة والزهادة ، الى ما سوى هذه الفضائل التي كانت من اخلاق سيد الرسل « ص » ، فلأي شيء كان المتقدم على سواه ، والسابق دون غيره ، والمدعي امامة الخليقة ، وخلافة سيد الرسل ، وانه تجب طاعته على الناس كلهم ، وتحرم معصيته عليهم ، وكيف يحصل به الحفظ لحقوق الله وحقوق عباده ،

وكيف تجب على الناس طاعته واتباعه ، وكيف يكون لهم القدوة ، وبه السلوة ، وكيف تحصل به السعادة لهم في الحيـاتين ، وغيره افضل واعلم واعدل واحكم، واهدى وارشد، ولو صح ذلك لجاز ان يبعث الله رسولا وفي الناس من هو احق واليق ، واقدر على اداء الرسالة واقوى ، أو يجوز ذلك في الامامة دون الرسالة ، على انهما معاً للاصلاح والهداية والارشاد واقامة الدلالة للعباد .

فاذا كان العقل هو الحاكم بافضلية الامام ، أفترانا ننبذ حكم العقل ، رعاية لفئة من الناس اختاروا المفضول فقدموه ، ولأجل ان نصحح عمل اقوام لا نعرف اغراضهم فى ذلك التقديم، او نعرف تلك المقاصد فنتجاهلها اغضاءاً او تغاضياً ، ونخالف الوجدان والحجى عمىً أو تعاميا ، لعمر الحق لا يرتضى ذلك حكيم ، ولا يوافق عليه بصير .

ومن الغريب ان يقول ابن ابي الحديد على فضله فى ديباجة كتابه شرح نهج البلاغة : وقدم المفضول على الفاضل لمصلحة اقتضاها التكليف . وإن غرابة هذا الزعم من جهات :

الاولى : انه نسب هذا التقديم اليه جل شأنه ، وانما هو من الناس .

الثانيـة : انه ادعى امراً خالف فيه العقل والوجدان والفطرة وسيرة ارباب العقول .

الثالثة : انه نسب هذا التقديم الى المصلحـة ، وليت شعري ما كانت تلك المصلحة التي اقتضاها التكليف فى هذا التقـديم ، سواء كانت من الله أو من الناس ، وليته صرح بها لنعرف صحة قوله ، وبرهان دعواه .

واذا كان القصد من الامامة التي تجمع حول لوائها بني الاسلام اجمع ، والتي هي مظهر السلطتين ، ومجمع القوتين ، صلاح البشر ، كما هو الشأن في النبوة ، فمتى يحصل الغرض المطلوب منها بالمفضول ، والافضل موجود بين الناس، دال بعلمه على احقيته وبفضله على اولويته .

وما السبب المبرر للعـدول بالمفضول عن الفاضل ، وبالناقص عن

الكامل ، وهما موجودان معا في البرية ، ومعلومان لدى الخليقة ، ليت شعري أكان المفضول اكرم عند الله واحب اليه وان لم يكن اتقى واصلح ، واهدى وانصح ، أو يختار الله لعباده — وحاشا قدسه — غير الاصلح ، ويرشدهم الى غير الاقوم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، أو نقول : ان الناس اعرف بالاصلح من بارئهم ، واهدى للصواب من العالم بسرائرهم وضمائرهم ، وصالحهم وطالحهم ، وعسى ان يأتي يوم ينبري لنافئة يحملهم العناد والعصبية لما وجدوا عليه الاباء فيزعمون ان الخليقة اعرف من الخالق ، والبرية اهدى من البارئ ، في انتقاء الخليفة ، واختيار الامام ، أو ان الناس اهتدت الى واجب الامامة فاختارت الامام وجهله اللطيف تعالى فاهمله .

وهل غاب عن أولئك — ولعله لم يغب — ان في دعوى تقديم المفضول على الفاضل طعنا في عدل الله تعالى وحكمته ، ولطفه في بريته ، ولماذا هذا الالتزام بهذا القول وان استلزم باطلا ، ولزم المس بقدس اللطيف تعالى ، ألأن فيه تصحيحاً لاعمال طائفة ، وتنزيهاً لاخرين ، وهل كان تنقية اعمالهم أهم من تقديس الله تعالى وتنزيهه ، أفيصح ان يكون البشر أحب الينا وارفع لدينا من خالق البشر .

وهذا الوجدان أمامك والعيان بمشهدك ، فماذا ترى لو قدم الملك البصير أحد رعيته للوزارة ، وكانت المقدرة والجدارة في غيره اوفر ، وللقضاء فاضلا ، وفيهم اقضى ، ولم يكن شيء وراء الستار تخفى حكمته ، أفهل يستسيغ ذلك ارباب العقول الراجحة ، والافهام المعتدلة ، فكيف اذا كان نسبة المقدم الى من أخروه كنسبة الجاهل الى العالم ، والغبي الى الذكي ، والجبان الى الشجاع ، الى ماسوى ذلك من التفاوت في النسبة بين الصفات السامية والدانية ، وان من اليقين ان الافضل اصلح لنا في الحياتين ، فلماذا يبلغ بنا الجحود الى ان نختار لانفسنا الدون ، ونرتضى الاقل نفعا ، والادنى محلا ، على ان الاعلى والارفع ، والافضل والانفع قريب التناول ، وليس دون امامته حاجز الا طاعة الناس وانقيادهم .

الامام معصوم من الذنوب

للامامة نظرتان ، نظرة اليها باعتبارها منصباً إ آلهياً ، يقلدها الله تعالى من يراه من عباده اهلالها فى كفايته ومقدرته ، وعلمه وصلاحه ، ليقوى على النيابة عن الرسول فى اداء وظائفه .

ونظرة اليها باعتبارها منصباً زمنياً ، وهي امامة بتسمية الناس ، يتولاها من استولى على العباد والبلاد بالغلبة والرهبة ، أو بالانقياد والرغبة ، أو بالوصية والعهد .

فالامام على النظرة الاولى اذا لم يكن معصوما من الذنوب ، مطهراً من العيوب ، نقياً من الرذائل ، متلفعاً بالفضائل ، فليس باهل لان يقلده اللطيف جل شأنه هذه الزعامة ، ويحبوه بهذه الكرامة ، ولا يصلح لان ينوب عن الرسول فى اداء وظائفه ، وان يقوم مقامه فى تقلده للسلطتين وقبضه بيد من حديد على القوتين ، بل لايليق بقدسه تعالى أن يقلد هذه الرياسة العامة وينصب لهذه الامامة العظمى الخالي عن تلك الصفات والملكات العلوية ، ويترك الحالى بهاتيك السمات القدسية ، والحالى والخالى موجودان معا في البرية ، ويمكن للناس اتباع كل واحد منهما ، والرضوخ لزعامة كل فرد منهما .

واما الامام على النظرة الثانية ، وهو الذي كونته الصدف ، وقدمته الظروف ، أو قومته الاغراض ، من دون نظرة لصالح العباد ، ورعاية للهدى والرشاد ، أو قدمته مقاليد القوة من سلفه ، وعاضدته القوتان السيف والمال ، وهما اللتان يقضيان على النظرة للصلاح ، والنهضة على الخلاف ، فانه لايرجى منه اصلاح الامة ، ولا هدايتها لسبل الخير والرشاد ، ولا يؤمل منه القضاء على الجهالة والضلالة ، والمنكر والفساد لانه ناقص بالذات ، عار عن رفيع الصفات ، ولان الظروف والصدف ، والجدود والسلف ، لم تكونه لتلك الغاية الغالية ، ولم تؤهله لذاك المقصد

الاسمى ، وانما رشحته للرياسة والسلطان فحسب .

نعم ربما كانت الصبغة احياناً للخدعة والتعمية على السذج والبسطاء صبغة خلافة وامامة ، بل اعتاد الناس من مثل هؤلاء على الكبرياء والجبروت ، والسفك والهتك ، والعيث فساداً في الارض ، واللعب بالقرود والفهود ، والميسر والقمار ، والتفرغ لمغازلة الولدان ، ومنادمة الحور الحسان ، وعقد مجالس اللهو والطرب ، ومعاطاة ابنة العنب ، الى امثال هذه الشهوات واللذات ، والمزح والمجون ، والفسق والفجور ، وانتهاك الحرمات ، وارتكاب المحرمات .

بل يرى الناس ان الامام الصالح من هؤلاء من لم يجهر بهذه الموبقات والكبائر ، ولم يتظاهر بتلك المنكرات والجرائر ، وإن اتاها سراً أو قاربها صدفة ، وأما اغتصاب الاموال ، وسفك الدماء ، وهتك الحرمات ، في سبيل تأسيس عرشه ، أو تأكيد ملكه ، فلا يرونه مخالفة للامامة ، وشيناً للزعامة ، ومحاربة للشريعة ، ونقضاً لعروش الدين ، فكأن البشر ماخلقوا الا طعمة لجشعه ، وبلغة لامانيه ، وما جاءت الشريعة الا لتكون كرة يلعب بها كيفما شاء .

وهذا دون ان يكون عالماً بالشريعة ، عاملا بنواميسها ، واين هذه الامامة الزمنية من تلك الامامة الإلهية ، واين من كان رغبته بالملك والسلطان ، ممن كان اختياره لطفاً بالعباد ، ووسيلة للصلاح والرشاد ، فلا بدع لو كانت العصمة فى الإلهية لزاماً ، وفي الزمنية حراما ، وما ابعد ما بين الامامين في الاختيار وفي الصفات والاثار .

فلا غرابة اذا لم تر الناس العصمة في الامامة شرطا ، والطهارة من العيوب وصفا ، لانهم اعتادوا من اول يوم على اولئك الذين تعاقبوا على المنابر ، وتربعوا على العروش ، فهتكت الحرمات ، واجترحت المحرمات واريقت الدماء ، وابيحت الاموال ، قرابين لسلطانهم ، وضحايا لتيجانهم واين العصمة من مثل هؤلاء !

واما الشيعة فقد نظروا الى الامامة من يوم ايجابها بما اقتضته المصلحة في تشريعها ، واللطف في تحتيمها ، واقاموا البراهين على لزوم العصمة في الامام من الذنوب ، والطهارة من العيوب ، نشير الى بعضها استطراداً ، وقد قامت بتفصيلها كتب الكلام عامة ، والامامة خاصة .

« الاول » ان الله جل شأنه حين اختار رسوله الكريم «ص» للغرف العالية ، وترك شريعته لتكون الناموس للبشر اجمع الى يوم القيامة فهل تركها ليقول ويعمل فيها كل احد برأيه وهواه ، فتكون الشريعة آراءً واهواءً ، ومذاهب ونحلا ، اولتبقى واحدة في الحلال والحرام ، حلال محمد حلال الى يوم القيامة ، وحرامه حرام الى يوم القيامة .

فان كان الاول فالشريعة لم تبق على ما جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله فلا تصح نسبتها اليه ، لانا على يقين بان الناس عمداً وخطأً قد قالوا بل وفعلوا على خلاف ما صدع به الرسول الكريم ، وهذا لا يلائم القول بوجوب المحافظة على الشريعة كما جاءت ، وان حلاله وحرامه باقيان الى الابد على ما قال وأمر .

وان كان الثاني فلا بد اذن من ان نقول : بان الله جل لطفه قد جعل لهذه الشريعة حافظاً عن العبث بها ، ومسيراً لها في كل زمان دون انقطاع ليستمر حلالها وحرامها على ما نزل به الروح الامين من رب العالمين ، وصدع به سيد المرسلين ، الى قيام يوم الدين .

فاذا اعتقدنا بانه تعالى جعل لها حافظاً عالماً بدقائقها وخصوصياتها لتبقى كما هي على ما هي ، فلا محيص من ان نقول : بان ذلك الحافظ العالم يجب ان يكون معصوماً ، لئلا يتعمد أو يخطئ في نقل الاحكام وبيانها على غير ما جاء في الشريعة ، فيوقع الناس في المخالفة ، وقد اراد الله للموافقة .

« الثاني » انا نقول بوجوب الامامة كما قلنا بوجوب الرسالة ، لحاجة البشر الى الامام ، فلو كان الامام غير معصوم من الذنب لكان كواحد من الناس ، فأية فائدة اذن في جعله اماماً لهم ورئيساً عليهم دونهم ، وهم

متساوون علما وعملا ، عمداً وخطأ ، وليست فيه ميزة عليهم ليحتاجوه فيها ، ويلتجئوا اليه من اجلها ، وان الناس في غنى عن مثل هذا الامام ، بل هو المحتـاج اليهم ، فلا يستغنى عن المعلم فيما يجهله ، وعن الرادع فيما يرتكبه من مخالفة الدين ، فاذا كان معلمه ورادعه ايضا غير جامع لفنون العلم وغير عادل من ملكة نفسية ، كان ايضاً غير غني عن المعلم المرشد ، والواعظ المذكر ، وهكذا الى ان ينتهى الى العالم بالشريعة كلها كما جاءت دون معلم من الناس ، والى العادل الذي لا يقترف السيئات قولا وفعلا ، خطأ وعمداً ، دون زاجر ورادع من البشر ، ليستغني بـذاته عن التعليم والتثقيف ، والوعظ والنصح والردع ، والا لتسلسل .

فالامام العالم بالشريعة كلها ، والمعصوم عن الذنب في الخطأ والعمد ، يجب ان يكون في الامة على اي حال ، فاذا دلنا البرهـان على وجوبه ، والعيان على وجوده ، فلماذا نحيد عنه من اول يوم ، ونغالط انفسنا فى الوجوب مرة ، وفى الوجود اخرى .

« الثالث » ان الناس بعد انتقال سيد الرسل الى الرفيق الاعلى اما ان يكونوا كالبهائم قد ارتفعت عنهم التكاليف ، ولم ترتفع عن البشر قبلهم أبداً ، فتكون الشريعة الاسلامية وقتية منوطة بحياة الرسول الاكرم ، ليس لها قابلية الدوام مادام البشر .

واما ان يكونوا قد اصبحوا علماء في الشريعة عدولا فى العمل ، كما كان عليه صاحب الرسالة فى علمه وعمله .

واما ان يكونوا كما كانوا قد خلطوا علماً وجهلا ، وعملا صالحاً وآخر سيئاً ، فهم لم يخالفوا العهد الاول الذي هم عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وما قبله .

ولا يرتاب ذو لب في ان التكاليف لم ترتفع ، وان الناس لم يعودوا علماء لا يجهلون ، وعدولا لا يفسقون ، بل نشاهدهم كما هم عليـه من العصور الاولى قد جمعوا بين العمل الصالح والطالح ، ومزجوا بين العلم

الواضح والجهل الفاضح ، فهم اذن في حاجة الى عالم لا يجهل ليعلمهم ما يجهلون ، والى عادل لا يقترف موبقة ابداً ليردعهم عن الموبقات ، ولو كان مثلهم فى العلم والعمل لم يصلح للتعليم والارشاد ، ولا الزجر والردع

« الرابع » اننا نشاهد في الناس الظلم والفتن والفساد ، فهل يا ترى قد رضي لهم الجبار سبحانه تلك الكبائر العظيمة بعد غياب سيد الانبياء عليه وآله السلام عنهم ، فتركهم وانفسهم يعملون ما يريدون ، أو أبى عليهم تلك الكبائر والجرائر ، والفواحش ماظهر منها وما بطن ، ونصب لهم من يدلهم على طرق الرشاد ويردعهم عن سبل الغي والفساد .

ولا ريب ان اهمال العباد والرضى لهم بما يختارون ويفعلون قول لا يرتضيه العدل ، ولا يقره العقل .

فلا بد إذن أن يكون تعالى قد نصب لهم دليلا هاديا وناصحاً مرشداً فاذا كان هذا الدليل يخطئ مرة ويصيب اخرى ، ويعدل تارة ويجور اخرى ، كان عندئذ احق من الناس بالردع ، واحرى بالزجر ، فلا مندوحة من ان يكون هذا المنصوب للدلالة والامامة والردع والمنع معصوماً ليصلح لما نصبه اللطيف تعالى له ، ويقوم بما هيأه له من النصح والرشد والصد عن الفساد والمنكر .

« الخامس » إن فاقد الشيء لا يعطيه ، وكيف يهب المال من لا يجده ، ويعلم الناس من يجهل ، ويعدل بالناس عن القبائح من طبع عليها ، أو لا يؤمن من ارتكابها ، ويهدى الناس الى الحق من سلك سبل الضلال أو من جاز عليه سلوكها .

وان الامام هو القدوة والاسوة ، وعليه عهدة التعليم والتقويم ، والاصلاح والارشاد ، والردع والزجر ، فاذا كان جاهلا مخطئاً عاصياً ، أو لا يؤمن غلطه وشططه لم يحصل به الغرض المنشود من الامامة ، فلا محيص اذن من ان يكون اعلم الناس واصلحهم ، واهداهم وانصحهم ، والمعصوم عن الزلل والخلل ليصلح للقيام بوظائف الامامة ، والا كان

بالتعليم اولى، وبالأرشاد اجدر، وباقامة الحدود عليه احرى ، «افمن يهدى الى الحق احق ان يتبع ام من لا يهدي الا ان يهدى» .

« السادس » ان الامام اذا كان كغيره من الامة في الخطأ والعصيان وجب على الناس الانكار عليه نهياً عن المنكر، وكيف يجتمع انكار الناس عليه مع امامته عليهم ، وكذا تجب مخالفته اذا أمر ونهى بما يخالف الدين، مع انه تعالى امر بطاعة الامام في قوله سبحانه «يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » واطلاق الامر بالطاعة شامل لكل امر ونهي وان خالف الشريعة ، فنحن ان خالفنا امره ونهيه خالفنا امر الله تعالى فى طاعته ، وان وافقنا امره ونهيه فيما خالف الشريعة خالفنا الشريعة لا محالة ، افهل ياترى يفرض الله طاعة امام نقع به في مخالفة الشريعة لا محالة وافقناه أو خالفناه .

وعساك تقول : ان الامام لا يأمر وينهى فى مخالفة الشريعة عمداً ، ولكننا نقول : ان الأئمة الذين استولوا على الرقاب قد أمروا فى المخالفة وعملوا بها عمداً وقصداً سراً وجهرا ؛ والتأريخ اصدق شاهد ، فهؤلاء الامويون واولئك العباسيون كم خالفت اقوالهم واعمالهم الحق والدين ، ولئن انكرت تلك المخالفةفقد خالفت العيان والوجدان، بل قاومت ضميرك وحسك ، ولئن جاريناك وقلنا : انه لايفعل ذلك عمداً ، ولكنك لا تنكر انه يفعل جهلا وسهواً، فنحن لامحالة اذن بين لحيي لهذم فى المخالفة والموافقة وهل ياترى يريد الله الامام للطاعة أو للعصيان ، وللهدى أو للضلال .

وكيف توقن بان الله يأمر بطاعة امام يعصي الله أو يرشد الى عصيانه ولو جهلا بمواضع الطاعة والمعصية ، وسبل الهدى والضلالة .

بيد اننا لا نتخلص من هذه المخالفة القطعية الا بان نقول : ان الله سبحانه أجل من ان يأمر بطاعة العصاة وارباب الجهل ، وارفع من ان يرتضى اماما يأمر الناس بالجهالة والضلالة ، عمداً وقصداً او سهواً وخطأ فلا يرتضى تعالى للامة امامة غير الآمر بالهدى ودين الحق ، العامل

بالصواب والصدق ، ولا يأمر الا بطاعة من سار على هذا السبيل ، ونسج على هذا المنوال : وهل يكون ذلك غير المعصوم الذي لا ينطق بغير الحق ، ولا يعمل بغير الصواب ، ولا يتداخل رأيه وقوله وسيرته وعمله خطأ وسهو ونسيان وعصيان .

« السابع » انما تختار الامة اماماً لها ليجمعها على الحق ، ويصدها عن الباطل ، ولو جازت عليه المعصية ، ومخالفة الحق ، وموافقة الباطل ، لم تستيقن بحصولها على الغرض المطلوب بامامته ، لجواز ان يكون مخطئاً فيما يقول ويعمل ، ومن الذي يؤمنها من براءته في اعماله واقواله ، ولكن اذا كان معصوماً من الوقوع في مهاوي الذنوب ، ومبرأ من نواقص العيوب ، أمنت الامة من المخالفة ، وايقنت بالموافقة ، واعتقدت بحصولها على ما تريد من الجمع على الحق ، والصد عن الباطل .

وهذا غيض من فيض مما يستدل به على وجوب العصمة في الامام من رجس الذنوب ، وطهارته من دنس العيوب ، فلا غرابة اذن لو اعتقدت الامامية بوجوب عصمة الإمام .

نعم لو كان مثل هذا الامام غير موجود بين الناس لحق الدفاع عن هذا الوجوب ، لانه يستحيل عليه جل شأنه ان يكلف عباده معرفة من لا وجود له ، وطاعة من لا عين له ولا أثر ، فلذا يجب ان نقول بانه معروف ، كما سنشير الى ذلك :

يجب أن يكون الامام معروفا

قلنا ونقول : إنما اراد الله سبحانه الامام خليفة الرسول « ص » ليسلك بالامة سبل الحق ، ويدلهم على مناهج الرشاد ، ويخرجهم من ظلمات الجهل والضلال الى نور العلم والهدى ، ويصدهم عن معاصيه وعن المنكر والفساد ، ومن ثم اوجب تعالى على الامة طاعته لتحصل به تلك الغاية العظمى ، وتبقى به الشريعة محفوظة النواميس ، ولو عصته وخالفته عدلت

عن نهج الصواب وسبيل الهداية ، فلا بد اذن من ان يكون معروفا في الجنس والقبيلة والبيت ، لتسهل معرفته على الناس ، القريب منهم والبعيد ويمكن ان يصلوا اليه دون كلفة وعناء ، ولو كان مجهولا فى ذلك لعسر على الناس عرفانه والانتهاء اليه ، فلا يحصل بنصبه الغرض المطلوب والفائدة المتوخاة ، من الارشاد والهداية والتعليم ، والردع عن المنكر والبغى والفساد، وكيف ينصب الله تعالى علماً للاستضاءة بنوره، ويأمر باتباع هديه وفعله، واستماع قوله، وهو مجهول الجنس أو النسب ،فيجعل العباد يتخبطون فى القبائل والبلدان ، ويفحصون فى الاجناس عن شخصه فانه خلاف اللطف والرحمة بعباده ، وخلاف القصد من نصبه .

وليست هذه المعروفية في الامور المذكورة وحدها كافية فى تشخيصه بل لابد من امور أخرى تعينه دون سواه ، وترشد اليه دون غيره ، مثل كونه منصوصا عليه ، أو أنه صاحب معجز باهر ، ولو لا ذلك لما قامت الحجة به على الناس وتيسر لهم عرفانه وتشخيصه .

من أهل الملة

اذا وجب ان يكون الامام افضل الامة والمعصوم من الذنب ،فلابد ان يكون من أهل ملة الرسول صلى الله عليه وآله ومن ابناء شريعته فانه اذا كان خارجاً عنها لم تحصل الشروط المقررة ، ولا الفائدة المقصودة وكيف يكون امام الامة العالم بالشريعة الاسلامية ، العامل بها ، والهادي اليها ، والدال عليها ، وهو من غيرها ، وكيف يجعل الله تعالى لاحد سبيلا على المسلمين وهو من غيرهم ، وهذا الامر بين الدلالة .

يختاره الله تعالى

تعتقد الامامية بان الامام يجب ان يختاره الله تعالى لعباده ، ودليلهم عليه ما سبق ذكره من انه اما ان يكون الله تعالى قد رفع التكاليف عن

البشر بعد انتقال صاحب الشريعة الى دار الخلود ، فاصبحوا كالبهائم لا نظام ولا احكام ، ولا حلال ولا حرام ؛ واما ان يكون البشر قد عادوا علماء فى الشريعة عدولا بالذات فى القول والعمل ، على نهج ما كان عليه صاحب الرسالة ، فهم في غنى عن الدليل الهادي ، والمرشد الناصح واما ان يكونوا كما كانوا على عهد صاحب الدعوة قد جمعوا بين علم وجهل ، وصواب وخطأ ، وهدى وضلال .

فعلى الوجهين الاولين لا تحتاج الامة الى من يؤمها ، ولكن ارتفاع التكاليف أو علم الناس بالشريعة العلم الذي لايشاركه جهل ، وعدلهم الذاتي الذي لايساوره جور أو فسق ابداً ؛ وهذاهم الذي لا يشوبه ضلال امران يخالفان الحقيقة والعلم والوجدان .

فاذا انحصر الامر في الوجه الثالث وجب ان يكون لهم امام ، يعلم علوم الشريعة كلها التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله ليقوى على تعليم الناس جميع ما يجهلون ، ويعدل فى كل قضية حسبما اراد الله تعالى ونطقت به شريعة الحق ليحمل الناس على شاكلة الدين ويردعهم عن الموبقات، واقتراف السيئات، وهاديا بنفسه ليهدى الامة الى الحق دون ان يعترى هداه شوب من شك او ضلال .

واين يجد الناس — لو تركوا وانفسهم — ذلك العالم العامل ، والامام العادل ، الذي يجمع الامة على الهدى والحق ، ويمنعهم عن السلوك في طرق الضلال والجهل ، وعما نهاهم عنه البشير النذير ، وانى لهم معرفة هذا الامام الجامع، ومعرفته تحتاج الى اختباره في سيرته ومقدرته ، والوقوف على نواياه وسريرته ، والاطلاع على علمه وعصمته .

ومن اختيار الناس لمن ملك ازمة الامور تعرف مقدرتهم ومعرفتهم في حسن الاختيار، أفهل وجدوا فيمن اختاروا إماماً جمع الصفات الفاضلة وتخلى عن الخصال السافلة ، معصوماً عن الذنوب ، نقيا من العيوب ، ورب الناس ان الناس لعاجزة اختياراً أو اضطراراً عن اختيار الامام

المتحلي بتلكم الفضائل النفسية العلية ، التي تميزه عن الامة جمعاء ، مثل كمال العلم والحلم ، والشجاعة والحزم ، والسياسة والكياسة ، والفصاحة والسماحة والزهادة والعبادة . والامانة والهداية ، والرشاد والصلاح .

والمتخلي بالعصمة عن الرذائل الدنية ، فلا جهل ولا ضلال ، ولا بخل ولا جبن ، ولا جور ولا ظلم ، ولا غفلة ولا نسيان ، ولا خطأ ولا عصيان بل ولا كل منقصة وعيب ، ودنس ورجس ، لا في حسبه ولا نسبه .

أفهل يا ترى يقوى البشر بآرائهم ومعارفهم على انتخاب مثل هـذا الامام ، ولو كانوا قادرين على اختياره أو ايجـاده فلماذا لم ينتخبوه ويختاروه فيما وقع لهم أو يقع ، وهل كان فيمن تربع على دست الحكم امام جمع تلك الصفات ، وحاز هذه الملكات ، واستصلح الامة وقادها الى العلم الصادق والهدى الصحيح ، وحفظ الدين من التلاعب كما جاء به سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ، وكان القدوة للامة فى خصاله واقواله وافعاله

ولو فرض محالا ان في الناس من يعرفه الناس جامعاً للفضائل كلهـا ، نقياً عن الرذائل جميعها ، كما اراد الله ورسوله ، دون ان ينص على امامته الرسول عن الجليل تعالى ولكن انى لهم باجتماع الكلمة عليه ، ومن الذي يحمل الامة على هذه الوحدة ، ويسوقهم الى الرضى به ، والارآء مختلفة والاهواء مضطربة ، وفى الناس طالب للحق ، ساخط على الباطل ، وفيهم عابد للهوى ، مطاوع للنفس ، يميل معها اينما مالا ، والمغريات جمة ، وفيهم جاهل بالامامة ومزاياها ، وبقدر الحاجة الى جامعية الامام ، فهو من اتباع كل ناعق ، يقوده الرئيس والزعيم ، لا يدري أيقاد الى الخير أو الشر ، والى الصلاح او الفساد .

ومتى اجتمع الناس اختياراً على باطل وهو ارغب للنفوس ، واميل للاهواء ، حتى نأمل فيهم ان يجتمعوا على حق ، وهو بعيـد عن الميول والرغائب ، فانك لو سبرت تأريخ الخلافة الاسلامية من بدء الخلافـة الى عهد سقوط الخلافة لم تجد خليفة اختارته الناس بأخـذ الاراء ، واجماع

الاهواء ، سواء كان من أهل الضلالة والجهالة ، أو من ارباب العلم والايمان ، فليس الاختيار من البدء الا لفئة خاصة تتفق فى الغاية وقد تختلف في القصد ، أو للسلف الماضي والخليفة الراحل ، ويمضى الامر على الناس رضوا أو ابوا ، قبلوا أو رفضوا .

فاذا كان البشر عاجزاً عن معرفة مثل هذا الامام أو اختياره . لو كان عرفانه واختياره راجعين الى الناس ، وجب على الله جل لطفه لطفاً بعباده ان يختار لهم ذلك الامام ، الحاوى للخصال العلوية ، النزيه عن الصفات الدنية ، فانه ان لم يختر الله تعالى لهم هذا الزعيم ، وترك الامر اليهم كما يزعمون ، فهم بين امرين اما ان يهملوا هذا الواجب ، فهناك الفوضوية فى الزعامة والنظام والاحكام ، واما ان يعملوا بان يختاروا — كما عملوا بزعمهم — فالامام عادل مرة ، وجائر اخرى ، وعالم طوراً ، وجاهل تارة وهاد طوراً وضال اطواراً ، وليس هذا فرضاً محضاً ، واحتمالا صرفا فى المتسمى باسم الخلافة بل نعرف هذا من تاريخ الامامة ورجالها الذين تعاقبوا على العروش ، ولكن اين هذا من اختيار العليم تعالى لعباده ، ولابد له ان يختار ، أفهل يختار لهم غير الافضل فى خصاله ، المعصوم عن الزلل والخلل ، المنزه عن العيب والنقص ، كما وجدناه تعالى حين اختار لهم الرسل والانبياء من البشر ، وما الخلافة الا نيابة الرسالة ، ولو كانت النيابة آتية باختيار الناس لكانت الرسالة مثلها ، واي فرق بين صاحب التنزيل وصاحب التأويل ، اذا كان الاول لاينطق عن الهوى ، وانما هو وحي يوحى ، والثاني لا ينطق الا عن تعليم وتفهيم من صاحب الرسالة

وعسى ان يقول قائل : لاي شيء تحتاج فى الامامة الى تلك المواهب القدسية ، والملكات النفسية ، والنزاهة عن هاتيك السمات الدنية ، ونجد الاسلام قد قام بنيانه ، وارتفعت اركانه . وخفق فى الشرق والغرب لواؤه وعلت حجته ، وارتضى الناس نظامه واحكامه ، وعرفوا فوائده ، ولمسوا منافعه ، وما اقتصر ذلك الاكبار لمعارفه ، والاعظام لقوانينه ، على معتنقيه

خاصة ، بل ما برحت الامم تقدس الشريعة الاحمدية وتشيد بذكر محاسنها الجميلة ، التي تقود العالم للاصلاح ، وتسموا بهم الى معارج السعادة ، على ان الذين نهضوا بالامر ، وتسيطروا على الامة ما كانوا مثالا للفضائل والمعارف ، وداعية الى ذلك الدين القويم بخصالهم وفعالهم ، وما كانوا حجة حاسمة تفل حدود ادلة الخصوم بالحجج والبراهين .

فنقول في جوابه : إن الاسلام عالي الحجة بذاته ، بين الحق بمعجزاته جلي الفضل بنواميسه ، فهو يسير بنفسه ، وينطق بحجته ، وان وقف اربابه مكتوفي الايدي ، وصمت دعاته عن القيام بحجته ، ولكننا نريد ان تكون حجته أعلى مما هي عليه اليوم ، وسيره اسرع مما سبق اليه ، واهله مذهب واحد ، ويجمعهم رواق واحد ، وذلك لا يكون الا بالامام الجامع لان حاجة الناس اليه في امرين جمعهم على الهدى ، وردعهم عن الضلال والردى ، ولو اجتمع الناس طاعة لامامهم على الهداية ، وكفوا عن الضلالة والغواية لرأيت الاسلام سائراً في المعمورة كالبرق الخاطف لاتحول دونه القفار والبحار ، ولا العدد والعدد ، لانه يجمع عند ذاك بين الحجة في البيان وبين السيف والسنان ، واين من يقف حاجزاً امامه وهو القوي في الحجتين ، والقاطع في الحدين .

على ان ابناء الاسلام انفسهم لا يكونون كابنائه اليوم ، يرى كل واحد منهم نفسه اماماً في الشريعة ، وحجة في الدين ، يتصرف فيه كيفما شاء وشاء له الهوى ، دون دليل ثابت ولا حاجز من تقوى الله تعالى ولا يرتدع عن الجرائم لعدم الرادع الا ان تكون له نفس تأبى ارتكاب المآثم ان النفس لامارة بالسوء ، ولا يرى فعل الواجبات فرضاً لا مندوحة عنه ، بل لا يعمل الواجب ولا ينتهي عن المحرم الا النادر النزر ، وقليل من عبادي الشكور ، واين هذا مما اذا كان الامام العالم العامل ، المعصوم العادل ، قائد الامة والمسيطر عليها ، ومبسوط اليد في تنفيذ الحدود والقصاص والتأديب والتعزير ، فانك عندئذ لا تعرف مرتكباً لكبيرة

ولا تاركاً لغرض ، فهناك العمل بالشريعة بحدودها ، وتسيير نظامها ونواميسها بكاملها ، وهناك الخيرات والبركات، ولأكلوا من فوق رؤسهم ومن تحت ارجلهم ؛ ولأمنت الناس على النفوس والاعراض والنفائس ذلك كله ببركة وجود الامام وبسط يده واقتداره على تسيير احكام الشريعة كافة .

وان الناس كالناس ، وكيف تجدهم اليوم يختلفون فى الاراء والأهواء ويتباينون في المدارك والمعارف ، ويتفاوتون في الحكم والعدل ، وليت شعري هل يأمل ذو بصيرة من مثل هؤلاء الناس ان يعرفوا الامام الصالح، أو يختاروه لو عرفوه ، ولئن اختاروا برهة قصيرة الامام الناصح ابا الحسن المرتضى عليه السلام فلأن الوقت ألجأهم اليه ؛ والظروف حكمت عليهم بالبيعة له ، الا ما كان من نفر قليل عرفت قدره فاختارته للصالح على انك كيف تجدهم معه يوم نهض بالامر وعلموا منه انه يسير بهم على المحجة البيضاء ، وكيف وجدت الناس من بعده قد نقضوا بيعة امام الحق ابي محمد الحسن عليه السلام ، وقدموا عليه معاوية ، وانت تعرف من معاوية يوم كان على الكفر ويوم قهره الاسلام على التظاهر باعتناقه ، وزاد فى الطين بلة ، وذر الملح على الجرح انهم رضوا بيزيد عن الحسين عليه السلام ، بل اراقوا دمه الزاكي لارضاء شهوات يزيد واعانوه على اخذ تراته من رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان دم الحسين عن دماء الفئة الكافرة التي قضى عليها الاسلام ببدر .

اليس من الحق اذن لو قلنا إن الناس عاجزة عن اختيار الامام العادل حتى وان اهتدوا اليه ، ودلتهم الامارات عليه ، وان الله سبحانه احق باختياره ليقطع بذلك دابر اختلافهم فيه ، وتشاجرهم على منصبه ، هذا فوق ما فيه من الصلاح لهم به ؛ ولا ينهج الناس سبيل الاعتدال الا ان يسلبهم القدير تعالى الاختيار، وكيف تراهم سلكوا سبلا معوجة والاختيار مسلوب منهم ؛ فكيف لو كان الاختيار لهم .

ولقد ابان أئمة أهل البيت شخصية الامام وما له من خلال قدسية وملكات نفسية في كثير من المقامات ، واظهروا عجز الناس عن معرفته واختياره لو تركوا وانفسهم ، ومن ذلك ما قاله ابو الحسن الرضا «ع» ـ وقد بلغه ان الناس « بمرو » قد خاضوا فى الامامة بالجامع يوم الجمعة ـ ومما قاله : إن الامامة اجل قدراً ، واعظم شاناً ، واعلى مكاناً ، وامنع جانباً ، وابعد غوراً ، من ان يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم أو يقيموا إماماً باختيارهم ، ثم قال في آخر كلامه : وكيف لهم باختيار الامام والامام عالم لا يجهل ، وراع لا ينكل ، معدن القدس والطهارة ، والنسك والزهادة والعلم والعبادة ، الى ان يقول : نامي العلم ، كامل الحلم ، مضطلع بالامامة ، عالم بالسياسة ، مفروض الطاعة ، قائم بامر الله عز وجل ، ناصح لعباد الله ، حافظ لدين الله .

ثم قال عليه السلام : وان العبد اذا اختاره الله عز وجل لامور عباده شرح صدره لذلك ، واودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم الهاما ، فلم يعي بعده بجواب ، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو معصوم مؤيد ، موفق مسدد ، قد أمن من الخطأ والزلل والعثار ، يخصه بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فهل يقدرون على مثل هذا فيختارونه ، او يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدمونه .

هذا بعض ما نطق به ابو الحسن الرضا عليه السلام عن نعت الامام وشخصيته ، وان الامام الذي يقود الامة الى السعادة فى الدارين ، ويكون امين الله على الدين والخليقة لجدير بان يصير متحلياً بتلك الفضائل النفسية والملكات القدسية ، وانى للناس ان يعرفوا بمداركهم ومعارفهم تلك الشخصية الفذة ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، وانى لهم لو ظفروا به ان يتفقوا عليه ، فهل يا ترى ـ بعد ان كانت الامامة لزاما ـ يعرف هذا الامام ويرشد اليه ، ويأمر بطاعته والسمع له غير خالقه سبحانه ، العليم بسرائر عباده وظواهرهم

وكفانا عن معرفة الناس بالامام من تعاقب على الحكم وسموهم خلفاء وأئمة ، وكفى منهم مروان .ويزيد والوليد ، والامين وابراهيم المغنى والمتوكل وعليهم فقس من سواهم .

وعساك تقول : ان الناس من بدء الامامة ما كان لهم اختيار فى الامامة وان الامامة التي عرفها الناس ما كانت الا بالغلبة والقهر ، أو بالاستمالة بالبيض والصفر ، ولو كانت شورى حقا لامكن ان يختار الناس الافضل الاصلح .

فانا نقول : اذا كان الأختيار مسلوبا من الناس أو مغلوبا عليه ، فلماذا لا نقول : بان الاختيار اليه عز وجل في الامامة من البدء ، كما كان الاختيار اليه فى الرسالة ، لان سلبه تعالى الاختيار من العباد اوفق واصلح للعباد من سلب بعضهم من بعض ، إذ لاريب بان اختيار العليم اللطيف سبحانه لعباده اصلح من اختيار الناس للناس ان سلم لهم الاختيار فكيف وهم مغلبون عليه .

الامامة لطف واجب

لا يمكن لاحد أن ينكر حاجة الناس الى الزعيم الجامع لهم تحت راية واحدة هادياً لهم الى سواء السبيل ولو لم تكن الامامة من الواجبات بحكم العقل والفطرة لما بادر الناس بعد وفاة المصلح الاعظم رسول الله « ص » ـ وهو بعد لم يجهز ولم يلحد ـ الى نصب الزعيم العام والانصار تقول : منا امير ومنكم امير والمهاجرون يأبون الا ان يكون امير واحد على الجميع وانه منهم دون الانصار فلو لم تكن الامامة بفطرة النفوس اهم من تجهيز النبي صلى الله عليه وآله لدى الناس لئلا تبقى الامة ساعة واحدة بلا زعيم لما ابتدروا اليها وتركوا ابا الحسن ورهطه عنده مشغولين في شأنه واشتغل الناس في امر الخلافة الى ان تم لهم ما ارادوه . ولم يدخلوا فى الاستشارة احداً من رهط الرسول صلى الله عليه وآله ولا من اعوانهم كأنما ليس لهم ولا لاتباعهم نصيب فى الامر بعد ان كان النصيب لهم كله لو كانت

الخلافة بالقربى أو بالفضل أو بالنص .

فاذا كانت الخلافة عن سيد الرسل صلى الله عليه وآله والامرة على المؤمنين واجبة عند العقل والغريزة فلا بد اذن من ان نقول : انه يجب عليه سبحانه ان ينصب الامام لطفاً بعباده وجوبا عقلياً لانه تعالى خالق العقل ورئيس العقلاء ولو ترك الاختيار لهم لخبطوا في انتقائه خبط عشواء أو كان الاختيار لفئة خاصة وهي تسير الامة لكانت الخلافة تبعا لمقاصد هؤلاء وما كان لعامة الناس خيرة ولا رأي كما كان ذلك كله .

فاذا كان الاختيار اليه جل شأنه قامت بذلك الحجة منه عليهم ، فاذا اعرضوا عن الامام المختار منه تعالى كانت حجته البالغة، وحجتهم المدحوضة لان اعراضهم يكون عن اختيار منهم لا غفلة ، وعن علم لا جهل .

فمن اللطف بعباده ان ينصب لهم ذلك المنار ولو لم ينصبه فتاهوا عن الصراط السوي ، افيكون الاغفال والاخلال منه تعالى أو من بريته أليست الحجة لهم عليه في هذا التيه ، والاخلال منه ـ وحاشا قدسه ـ في هذا الاهمال .

فاذا تبينت ان نصب الامام واجب عليه تعالى فهل يليق بعدله ولطفه وعطفه ان يهمل هذا الامر ، وان استلزم هذا الاهمال ضلال براياه ، وتيه عباده ، ثم يعذبهم على ركوب هذه الضلالة ، وركوسهم فى مهاوي هذه الجهالة ، وهو الذي يبقى لهم ظلام ذلك الضلال من دون ان ينيره بشهاب ثاقب ، ويضيئه بمصباح منير .

لا اراك تقوى على اقناع عقلك ، وارضاء وجدانك فتقول : ان الله تعالى اهمل ما وجب عليه ، وترك مالزم لديه ، فلا بد اذن من ان يكون تعالى قد فعل ما وجب عليه ، فنصب من به الهداية والانارة « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » لان تمام تبليغ الاحكام واقامة النواميس والنظام منوط بالخلف والامام ، ولقد فعل الرسول وبلغ فى عدة مواطن اظهرها يوم الغدير ، فنزل قوله تعالى

« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا »

وعساك تقول : إن المنصوب هو الكتاب المبين ، لاسيما والسنة تعضده وتكشف عما التبس منه ، وتوضح ما اغلق فيه . فنقول في جوابك : إن الامام لابد ان يكون بعد الرجوع اليه والامتثال لاوامره ، والارتداع عن زواجره ، موضحاً للحق ، كاشفاً عن الحقيقة ، فلا جهل بعد بيانه ولا اختلاف بعد ايضاحه ، فيه كشف المبهم ورفع الحيرة ، وجمع الكلمة وتوحيد المذاهب والآراء ، والنحل والاهواء ، وتجد الامة وقد اتبعوا الكتاب رائداً لهم ، والسنة دليلهم ، قد افترقوا الى ثلاث وسبعين فرقة ، وقد سلكت كل فرقة وادياً ، زاعمة ان قائدها الكتاب ، فمن هنا نعرف ان الكتاب وان كان اماماً الا انه لم يكن الامام المقصود الذي نصبه اللطيف تعالى ، للجمع على الهدى ، والصد عن الردى ، وللايضاح والبيان واقامة الامت والعوج باللسان والسنان ، فانه لا بد ان يكون هذا الامام المنصوب ناطقاً ، وان هذا الكتاب لصامت ، وبهذا الامام الناطق نعرف مقاصد الكتاب الصامت ، ومغازي السنة النبوية . لانهما غير كافيين في الوفاء بالدلالة والهداية ما لم يكن ترجمانهما ذلك الامام الناطق ، ومن جراء صفح الناس عن هذا الترجمان صاروا فرقاً ومذاهب ، فانهم رجعوا الى الكتاب والسنة معرضين عن المفصح في ايضاحهما المفسر لما اشكل منهما وعادوا يؤولونهما حسبما رأوا وتمشت بهم الاغراض والاهواء ، ولو رجعوا اليه لما ركبوا السبل المعوجة ، وتقولوا على الله وعلى رسوله بغير هدى ولا كتاب منير ، بل لكانوا امة واحدة تسير تحت راية واحدة ، وجامعها مذهب واحد ، فلا ملل ولا نحل ، ولا اهواء ولا آراء .

ولا ادعك تقول : لا يكفي في وجوب نصب الامام عليه تعالى قاعدة اللطف لجواز ان تكون هناك مفاسد في هذا النصب .

لان هذا القول غير سديد ، فان المصالح في نصب الامام محسوسة والفوائد ملموسة ، ولا نعرف مفسدة بينة تطغى على تلك المصالح والفوائد

لتزيلها وتحل مكانها ، واحتمال المفسدة من دون برهان لا يدفع اليقين بالمصلحة . على ان القرآن الكريم صرح في نصبه تعالى للامام فقال « إني جاعلك للناس اماما » فلو كانت هنالك مفاسد فى جعل الامامة لما كان منه تعالى هذا الجعل .

ولا اخالك تقول: ان الامامة انما تجب اذا انحصر اللطف فيها ، لكن يجوز ان يكون هناك لطف آخر يقوم عنها مؤدياً وظائفها ، فلا تجب الامامة اذن على التعيين .

لان هذا الزعم غير مصيب ، فان لطف الامامة معلوم لدى ارباب العقول السليمة ، وسيرة العقلاء على هذا اللطف اعدل شاهد ، وافصح ناطق وذلك انهم يلجأون فى كل عصر ، ويفزعون في كل مصر ، الى نصب الزعماء والملوك ، حذراً من مفاسد الفوضوية ، وتشتت الكلمة ، وتفرق الناس ، واما اللطف الآخر الذي يغني عن لطف الامامة فلم نعرفه ولم نجد له اثراً ، لنرى ايهما ارجح عند تعادلها فى كفتي ميزان ، اما الناس فلم تجد غير الشقاء والبؤس من يوم اعراضها عن صاحب هذا اللطف ولم تجد ما يسد تلك الثلمة ، ويقيلها من ذلك العثار ولم تجد غير اختلافها نحلا ومذاهب وتشتتها الى طوائف وطرائق .

فالشيعة اذن انما اعتقدت بان الامامة كالرسالة لطف واجب عليه جل لطفه للبرهان العقلي هذا سوى الدليل النقلي واعتقدت بان الله تعالى ينصب للناس الأئمة كما يبعث لهم الرسل لحاجة الناس الى الدليل ذي التأويل كما هم في حاجة الى الرسول صاحب التنزيل ، وكما يضلون لو صفحوا عن صاحب الرسالة ، يتيهون لو اعرضوا عن حامل الامامة ، فانه من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية .

وان هذا اللطف الذي دعاه تعالى الى نصبه للامام بدأ هو الذي يدعو الى بقاء الامام ودوامه ، ما دام بشر ، وما دامت حاجة ، فالبرهان القائم على امامة ابي الحسن عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله بلافصل

قائم على وجوب نصب بنيه من بعده واحداً بعد آخر ، وهو القائم على وجوب نصب واحد منهم فى هذا العهد، فان منعت الحواجز من ان يكون ظاهراً مشهوراً ، فلا بد ان تجعله غائباً مستوراً .

الامامة على نواميس العادة

إن الامامة آتية على نواميس العادة ، ومجاري السيرة ، ألست تسمع وترى ان الملوك والزعماء يهتمون بنصب الخلف عنهم ايام حياتهم ، حفظا للدولة وحرصا على المصلحة العامة ، وابقاء على الرعية ، أفهل يكون ملك وليس له ولي عهد ، أو رئيس جمهورية بغير نائب ، وقد اتسع اليوم نطاق قوانين الدول فجعلوا نائباً حتى لرئيس الوزارة، فانهم يرون ان جعل ولي العهد والنائب اقرب وسيلة لقطع الشغب والتنافس على الملك والزعامة ، ومنع الفوضوية ، وادنى لاطمئنان الشعب ، وامن البلاد .

بل لو كان لرجل صبية صغار واموال وافرة لاهتم في نصب الولي على صبيته حفظا لاموالهم ، وحرصا على تربيتهم ، ولو اغفل هذا الرجل جعل الولي، والملك ولي العهد لعد العقلاء ذلك اهمالا ، بل جناية من الرجل على الصبية،ومن الملك على الرعية هذا مع ان مثل هذا الجعل للوصي،والنصب للولي ، انما يكون رعاية لشأن الدنيا صرفاً ، ويعد ذوو البصيرة الاغفال جناية وجرما ، فكيف اذا كان فى الولاية والخلافة الرعاية لشأني الدين والدنيا ، والجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، افلا يجب على الله تعالى أو على صاحب الرسالة عليه وآله الصلاة والسلام ان يرعيا شأن الدين ويلحظا أمر الامة ، فى اقامة خليفة عن الرسول كالعادة المألوفة ، وسيرة العقلاء الصحيحة، فيكون به حفظ الشريعة عن عبث الاهواء والآراء والاصلاح للعالم باسره والحسم للنزاع والمنافسة ، أليس الاهمال لنصب الخلف عند العقلاء جناية على الشريعة واساءة للامة، إذ يجعل الشريعة عرضة للتأويل والتغيير والتبديل ، والامة معرضاً للشغب والجدال والجلاد، منافسة على

الخلافة ونزاعا على منصب الامامة وحينما يجدون انفسهم مضطرين الى الامام يخبطون في اختياره ويتقاومون في انتخابه ويتحاربون فى تعيينه ذلك فيما لو كان الاختيار اليهم ولكنهم عادوا مقهورين على الاختيار مغلوبين على التعيين. ومن الذي اختبره الناس قبل اختياره فاختاروه بعد اختباره، وانت على علم بتأريخ الخلافة من بدء الخلافة وكيف كان الاختيار فيها حتى عادت ملكا عضوضا لا علاقة لها مع النبوة ولا صلة لها بالرسالة ولا رابطة لها مع الدين .

فاذا كان شأن السيرة ما ذكرناه ، ودأب العادة ما اوردناه ، في نصب الوصي والولي ، فلماذا تخرج الامامة عن تلكم السيرة ، وهاتيكم العادة وهي احرى بان تجري على هذه النواميس ، إذ بها زيادة على اللطف حفظ الامة من حدوث الشغب والمساومة والمنافسة ، وبها قطع الاطماع من ارباب الاغراض ، ومرضى القلوب ، وبها الابقاء على كيان الشريعة كما نزلت من السماء .

ولماذا اهتدى الناس بغرائزهم الى هذا الواجب، فتسابقوا من اول يوم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله الى نصب الزعيم ، والله تعالى قد نسيه والنبي قد اهمله واغفله ، فلم يرعيا فى الامة واجب اللطف ، ولا نواميس السيرة ، وفى الشريعة واجب الحفظ والاحاطة ، اترى الناس حين بادروا الى نصب الخليفة كانوا اشفق منهما على الشريعة والناس ، أم أعرف منهما بالاصلح ، ام ماذا ؟

فاذا كان الاختيار لابد منه فى الامامة فلا ريب في ان الله تعالى والرسول صلى الله عليه وآله اهدى من الناس الى من هو الاصلح لها والاليق ، واعرف بمن هو الاجدر والاوفق ، لان التجربة من الناس دلتنا على سوء الاختيار منهم – لو كان لهم اختيار – فانهم اختاروا بعض من يبغضه الله ورسوله ، ويبغض الله ورسوله ، بل يبغضه الناس انفسهم فى قوله وفعله وسيرته وسريرته ، ولو اختار الله ورسوله أحداً للامامة

لما اختار الا احب خلقه اليه واكرمهم عليه ، الصالح للامامـة ، المصلح للامة في هديه وسمته ، وخصاله واقواله وافعاله .

فالنبي صلى الله عليه وآله اذا لم ينصب الخليفة بعــده اما ان يكون قد ترك ما يحتمه الواجب على الله تعالى وعليه ، وجعل ذلك الى النـاس فهو حينئذ قد ظلم ـ وحاشاه ـ نفسه وظلم امته ، وأي ظلم اعظم من ترك الواجب ، الواجب الذي لو تركه لجعل الامة تفترق على فرق شتى ، وتعود الى الجهالة والضلالة باسم الدين ، ويضرب بعضها بعضا على الخلافة ، كما وقعت في هذا التطاحن والافتراق والانقلاب على الاعقاب ، حين زعمت ان الصادق الامين صلى الله عليه وآله قد اغفل هذا الواجب ولم ينصب للامة اماماً وهادياً مرشداً .

ولو فرض محالا ان الرسول ـ وحاشا قدسه ـ قد اهمل هذا التكليف والناس قد عرفته فاختاروا الزعيم عليهم لانه لابد للامة من امام ، فلماذا تجب طاعة هذا المختار ويحرم عصيانه عليهم وعلى من لم ير له امامة ، وان كان ذلك الامام من ذوي الفسوق والفجور ؟ لست ادري .

واما ان يكون الرسول الامين صلى الله عليه وآله قد ادى رسالتـه وعمل بما يحتمه عليه الواجب فقد نصب خليفة لامحالة ، واشار الى الامام بعينه يقينا ، وهذا ما تقوله الشيعة وتعتقده ، غير انه يجب علينا ان نعرف ذلك الخليفة المنصوب والامام الموهوب ، والى ذلك الاشارة في العنوان الآتي :

من الامام ؟

بعد أن فهمنا ان نصب الامام واجب على الله وعلى رسوله ، وانهما لا يتخلفان عما يجب عليهما ، فلا بد انهما قـد نصبا ذلك الامام ، واقاما للامة ذلك المنار ، غير ان الواجب ان نعرف من اقاماه للامامة ، ونصباه للخلافة

فاذا انتهى البحث بنا الى هذه المرحلة فنقول : يجب ان نعرف الامام معرفة يقين دون ارتياب ، وعلم دون شك حتى نقطع عليه وقلوبنا مطمئنة

لايخالجها وهم فان كان هناك أحد قام عليه النص واختير للامامة فهو أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ومن بعده ولده الحسن ثم الحسين ثم اولاد الحسين الى ابن الحسن العسكري ، واحداً بعد آخر ، ينص الاب على ابنه ويرث الابن اباه فى الامامة وجميع الفضائل .

وذلك لان الامامة بالنص والاختيار والخصم لم يدعها أحد في الاسلام الا هؤلاء الأئمة الاثنى عشر ، فان ثبتت امامة منصوص عليها فهي في هؤلاء الرهط والا فلا امام غيرهم باجماع المسلمين عامة ، ادعيت عصمته والنص عليه .

ومعرفة الامام بشخصه ، والدلالة عليه من وجهين ، احدها ، النص وذكرت كتب الامامية منه آيات كثيرة ، وروايات متواترة فى علي «ع» يطول البحث عنها ، ولا نريد ان نعيد ذكرها وهي معلومة لدى الخاص والعام ، كآية « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وآية « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » وآية « وقفوهم انهم مسؤلون » وآية المباهلة وآية « انما انت منذر ولكل قوم هاد » وغيرها ، وكحديث نص الغدير وحديث المنزلة ، واحاديث انت خليفتي من بعدي ، وحديث الثقلين وحديث السفينة ، وحديث باب حطة ، وغيرها .

وبعض هذه الآيات والروايات شاملة للحسنين عليهما السلام ، وبعضها يدل على وجود امام فى كل عصر . هذا سوى الاحاديث القائلة بان الأئمة من قريش والمخصصة لهم في بني هاشم ، والمصرحة بانهم اثنى عشر ، وكثير تنص بانهم من ولد علي وفاطمة وهناك طائفة صرحت باسمائهم واحداً بعد آخر ، وروت كتب أهل السنة شطراً منها ، على ان كل امام سابق ينص على الامام اللاحق نصاً بيناً صريحاً ، وقد روته كتب الامامية وتواتر عندهم ، فعلموه من دون ريب وشك .

« ثانيهما » المعجز ، وهو ما لا يقدر عادة على الاتيان بمثله عامة البشر كمعاجز الانبياء ، ولعلك تقول : انما يكون ذلك فى ايامهم حيث يمكن

الوصول اليهم ومشاهدتهم : اما اليوم فلا ذريعة لنا الى المعجز ، فنقول : كفتنا آثارهم الموجودة وما روته لهم كتب الفريقين متواتراً ، فانها تنبيك ـ اذا اعطيت النصف من نفسك ـ انهم فوق مستوى البشر في كل صفة كريمة ، فلم يجارهم أحد فى علم ، ولم يدانهم فى فضل ، ولم يماثلهم فى مكرمة ولا كرامة .

ولا اغالي لو قلت : ان نهج البلاغة وحده فيه الدلالة الكافية على تلك الامامة التي هي مجمع الفضائل ، ولا اضايقك اذا ابيت ان تسميه معجزاً بالاصطلاح ولكن .

أليس هو نبراس الفصاحة والبراعة الذي سبق فيه ابو الحسن « ع » فرسان هذا الميدان من الاوائل والاواخر عدا الرسول صلى الله عليه وآله الذي اخذ عنه أمير المؤمنين تلك المعارف ، حتى اصبح كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق ، أليس هذا اذن هو البرهان القاطع ؟

أليس نهج البلاغة مظهر العلم الالهي في التنبآت عن الحوادث المتأخرة وقد صدقت الايام تلك التنبآت التي وقعت ، فدلت على ان منشيه يستمد علمه من فيض الينبوع الالهي ، أليس هذا هو المعجز الخالد ؟

أليس في نهج البلاغة من ينبوع الحكمة الالهية والمعارف الكونية ما عجزت عنه اعاظم الفلاسفة المتأخرون فضلا عن ابناء عصره ، الذين جهلوا الفلسفة والعلم ولم يشموا رائحتها ، وقد كشف العلم في القرون المتأخرة كثيراً من تلك الدقائق المدهشة ، أليس هذا هو المعجز الدائم ؟

أليس في نهج البلاغة من مناهج السياسة وعلوم الاجتماع ما يصلح لان يكون نبراساً يستضاء به لتدبير البلاد وقيادة العباد ، فترشدنا الى ان ربانها السياسي المحنك ، والعالم الاجتماعي الخبير الذي لم يأخذ العلم من افواه الرجال ولا من مسطورات المؤلفين ، وانما اخذها عن المدبر الحكيم تعالى بواسطة صاحب الرسالة ، ولو نظرت فى عهده لمالك الاشتر وحده لعرفت مبلغ علم الامام فى ذلك العصر الاعزل عن امثال هذه المعارف ، أليس هذا هو

المعجز الخارق ؟

أليس نهج البلاغة مجمع الاداب العالية ، التي تريك ان مبدعها لم يتكلف هذا الفن ، وان طبعه الفياض لا يبـــاريه ولا يجاريه نـد في الوجود الا يدلك هذا على انه الدليل الهادى ؟

أليس نهج البلاغة هو الذي فتح لارباب الكلام البرهـان العقلي الفني على وجود البارى تعالى ووحدانيته ، بما لم يسبق له مثيل ، ولا عرفـه الناس قبله ، وانما حذوا مثاله بعده ، الا يرشدك هذا الى انه الحجة البالغة ؟

أليس نهج البلاغة النهج الذي حوى من الترغيب في الجنة ما يمثلهـا لك كانها مشاهدة للعيان ومن الرهبة من النار ما يجسمها لك ساطعاً لهبها ولا يكاد يسلم من ورودها الا المخاصون ، أليس نهج البلاغة نهج الوعظ والتبليغ ، والزجر والردع فهو البرهان القاطع ؟

ولو حل الله عقدة من لساني فاصبح الذلق الفصيح ، واستطاع اليراع ان يعرب عن تلك الموهبة الربانية ، لكان العاجز عن وصف كل ماحواه نهج البلاغة ، الذي جمعه السيد الشريف الرضي طاب ثراه فى تلك الصحائف الجديرة باسم « نهج البلاغة » بل هي نهج العلم والمعارف ، نهج السياسة والتدبير ، نهج الاداب والاخلاق ، نهج الاحكام والحكم ، نهج الهداية والارشاد ، نهج البرهان التوحيدي ، والدلالة على ذاته وصفاته .

هذا بعض ما يفصح به نهج البلاغة ، الست تراه معربا عن تقدم منشيه بكل فضيلة ، وتفوقه في كل مكرمة ، فتسامى عن المثيل والنظير ، واستحق الامامة بالذات والصفات دون رأي من الناس واختيار .

ولما لم يجد اعداء المرتضى عليه السلام سبيلا للغمز فيه حاولوا أن يتذرعوا الى ذلك بالقدح في نهج البلاغة ، فقد زعم اولئك النفر ـ تشبثاً بامور لا تصلح للتعلة فكيف للتعليل ـ بان في نهج البلاغة ما ليس لأمير المؤمنين عليه السلام ، وان واضعه جامعه وبعض علماء الشيعة ، وقد اجاب عن هذا الغمز ابن ابي الحديد في مواطن عـديدة من شرحه ، وما

زال ذلك الوتر يضرب عليه حتى ابناء اليوم ؛ وحملهم على جحد شطر منه أمور :

١ ـ تظلمه من فئة وطعنه فيهم ، وهم يوالونهم ، ولا يريدون ان يظهر ابو الحسن بمظهر العداء لهم ، لان قدحه فيهم انكار لامامتهم فهم يهوون ان تسير الامور حسب رغباتهم لا على وفق الحق والحقيقة .

٢ ـ اشتماله على معارف سامية واخبار عن الغيب ولا يريدون ان يظهر ابو الحسن بهذا المظهر الرفيع الذي يقصر عنه الناس كلهم فكأنهم يريدون ان يكون المرتضى حسبما ينظرون اليه ويرونه فيه لا حسبما اراده الله تعالى فيه ونصبه له .

٣ ـ تصريحه بان الامامة فيه وفي أهله وهم لا يريدون ان تكون الامامة في اهل البيت ، واذا سلموا لهذا التصريح لزمهم جحد امامة السلف فكأن الامامة انما تجيء حسب اهوائهم واعترافهم، فاذا انكروها فلاامامة ولا نص وأن قام عليها الف تصريح والف دليل .

وكيف يخفى على أهل العرفان والبيان ان الشريف الرضي والعلماء كلهم لو اجتمعوا على ان يصفوا شيئاً من مثل نهج البلاغة في سبكه وبيانه وحكمه واحكامه ومعارفه وعلومه الى ما سواه مما اشتمل عليه النهج لقصروا عن اقله وعجزوا عن لحوق غباره فضلا عن مماثلته ومحاكاته ألا تجده من البدء الى النهاية ماءً واحداً ، تعلو آخره تلك البهجة التي تعلو أواسطه واوائله ؛ وان ذلك الرواء الذي تلحظه في خطبه هو الذي تنظره في كتبه وحكمه ، وان تلك الفصاحة والبراعة التي تبهرك في بدائع الحكم هي التي تعجبك في سبائك الخطب والكتب .

ولو صيغ سبيكة واحدة لو جدتها مجلوة كلها من تبر واحد ، أو رقم صحيفة واحدة لعجزت عن التمييز بين الفصول والجمل ، لوحدة الجمال في السبك والرواء في الاسلوب والاعجاز في البيان ، وانى للشريف الرضي ولاعاظم الفصحاء والبلغاء ان يجاوره في اسلوب أو يباروه في بيان ، وهذا

كلام الشريف و كلام غيره من ابناء البلاغة والبراعة بين ايدينا ، بل وهذا كلام فصحاء العرب الذي احتفظت به الكتب نقرأه ونعيه، انه لينبو عن كلام سيد الفصحاء ابي الحسن لو مزجته به ، ويتباعد عنه لو قرنته فيه وترى البون بينهما بعيداً ، والبعد شاسعاً ، شأن كلام المرتضى لو قرنته بالكتاب العظيم .

وقد جهل أو تجاهل اولئك النفر ان نسبة بعض النهج لبعض العلماء رفعة لاقدار اولئك العلماء واعظام لابي الحسن عليه السلام ؛ اما رفعة اولئك العلماء فلما نسبوه اليهم من الكلام الذي يعجز البشر عن ان يشق غباره ، واين من استطـاع مجاراته فى بيان ، أو مماثلته فى ادب أو مضارعته فى حكم . أو مجاراته فى علم أو محاكاته في الثناء على قدسه جل شأنه والبرهان على توحيده ، ونعت رسوله بما يستحقه من الاعلام عن جهاده وجهوده. و كريم صفاته.

واما الاعضام فيه لامام اهل البلاغة المرتضى عليه السلام فلما جعلوه في شيعته من العلماء الذين بذوا كل فصيح وبليغ، وعالم واديب ، وسياسي وحكيم ؛ فكيف يكون اذن شأن ذلك الامام المقتدى ، والاستاذ المثقف وايم الحق لقد فات هؤلاء انهم مدحوا وما قدحوا، ورفعوا وما وضعوا

ولو قيل : ان نهج البلاغة مختص بابي الحسن عليه السلام فما حظ اولاده منه لقلنا : إن الامامة المنصوص عليها والعصمة عن الذنب والنزاهة عن النقص اذا ثبتت لابي الحسن على ما يقوله الشيعة ثبتت لبنيه ،إذ لا يقول احد بالفصل بينه وبين اولاده الاحد عشر ، وقد نص هو على الحسن والحسين عليهما السلام ، ونص الحسين على السجاد والسجاد على الباقر وهكذا ينص الاب على ابنـه الى ان انتهى النص من الحسن العسكري على ابنه المهدي المغيب عجل الله فرجه وسهل مخرجه .

على ان للائمة الآخرين اثاراً أخرى تشهد لامامتهم من جهـة الميزة بالعلم وكل فضيلة ، واين انت عن الصحيفة السجادية ، التي جمعت بين تلك

المعرفة الجليلة بالخالق العظيم والخشوع والخضوع في طلب الغفران ، اللذين يجسمان لك ذلة العبودية وعزة المعبود ، والرقة في التماس العفو، التي تجلب عطف المولى ورأفته ، وبين بديع البيان ، وفصيح العبارة ، وجمال الاسلوب حتى تخال أنه ما جاء بهذا السبك فى دعائه الا للاعجاز ، ولو اغرقت فى تصفحها ، وكررت التلاوة لدعائها لعرفت انها لم تكن جامعة دعاء فحسب بل هي جامعه ادب رفيع ، وعلم جم ، واخلاق سامية ، ونصح وارشاد تهديك الى ارتياد الفضائل ، واكتساب الاخلاق وحسن السلوك ، والانزجار عن النقائص والجرائم : فهي جامعة فنون ، وروضة محاسن : وفنون من العلم والاداب والاخلاق ، تجلى الصدأ عن القلوب ، وتنير ظلم الفكر وتوقد الاحساس فى النفوس ، وهل يطيق ان يصوغ تلك السبائك الثمينة جامعاً لها من معادن شتى غير رجل اختبر فاختار ، واخلص لله فاستخلص ولا تراه الا ذلك الامام الذي عنته النصوص ، وميزته النعوت ، ودلت على امامته براهين العقول .

ولو قلت : ان الصحيفة تختص ايضاً بزين العابدين عليه السلام فما حظ باقي الأئمة منها ، لقلنا لك : إن الامامة اذا ثبتت لاحدهم ثبتت للجميع من دون خلاف وارتياب ، على ان لهم آثاراً أخرى تدل على تلك الامامة المقصودة ولا اريد ان أدلك على مجاميع عديدة رويت عنهم ، وألفت في عصورهم أو ما قاربها ، في علوم كثيرة ، وابواب مختلفة . امثال تحف العقول ، وبصائر الدرجات ، والخرائج والجرائح ، واحتجاج الطبرسي ، والخصال ، والتوحيد للصدوق طاب ثراه الى ما يكثر تعداده ، أو فى الفقه خاصة ، امثال فروع الكافي ، ومن لا يحضره الفقيه ، والتهذيب ، والاستبصار ، للمحاميد الثلاثة ، محمد بن يعقوب الكليني ، ومحمد بن علي الصدوق ، ومحمد بن الحسن الطوسي ، رضوان الله عليهم ، الى كثير عداها .

بل انما اريد أن ادلك على اثر واحد جامع ، وفيه القدح المعلى لكل امام ، الا وهو اصول الكافي لثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه

المتوفى عام ١٢٨، أو ١٢٩، وقد عاصر النواب ببغداد فى عهد الغيبة الصغرى وقد ألف هذا الكتاب النفيس فى عشرين عاماً : واثبت فيه لكل امام فى كتبه وابوابه المتفرقة من الاحاديث في الاخلاق والمعارف والعلوم والآداب والمواعظ والوصايا والحكم وما سواها ما ينبيك عن ان ذلك الفرات السائغ يمتد من ينبوع الفيض الالهي ، وان الناس فارغة الحقائب عن مثل تلك النفائس لو قستهم اليهم ولو ألقيت عليه نظرة واحدة لعرفت انه ان كان علم جاء به الرسول صلى الله عليه وآله عن الجليل تعالى فهو الذي عندهم ، وحفظته صدورهم ، ووعته قلوبهم ، ونطقت به السنتهم .

ورجوت منك ان لو سبرت بعض ابواب هذا الكتاب سبر رائد : يتطلب نجعة الغيث ، ومستهل القطر ، ومنبت الحق ، والرائد لا يكذب اهله فكيف نفسه ، لتستجلى هذه الحقيقة ، وتعرف جلي الحق ، فان من استهدى اهتدى ، ومن استرشد رشد ، والله عز شأنه لا ينصب اماماً لا يجعل له حجة ، ويقيم مناراً لا يقيم عليه دلالة ، ويوقـد مصباحاً لا يجعل له نوراً للهداية .

وكفى دلالة على امامة هؤلاء الرهط ، الامامان محمد الجواد وعلي الهادي ، عليهما السلام ، فان الجواد اضطلع باعباء الامامة وهو ابن سبع والهادي وهو ابن ست أو ثمان ، وقد ظهر منهما من العلوم ما أنبأ عن انهما خزانتان لعلم الله تعالى ، ولو كانت الامامة من غير الله سبحانه لكان وهما بهذه السن فى بدء التعلم للقراءة والكتابة ، فكيف يكونان غيثاً هاطلا فى العلم لا يقلع ، وبحراً زاخراً فى الكرامة لا يبس ، وشجراً مثمراً فى الفضائل لا يجف ، فليت شعري متى تعلما تلك العلوم والمعارف والاداب والاخلاق لو لم يكونا امامين ، يستمدان من الفيض الاعلى ، ومن اين اخذا تلك الفضائل السامية التي بذا فيها الأمة ، وأبواهما ماتا عنهما وهما صغيران ، لو لم تكن تربيتهما بالعناية الربانية . تلك التربية التي جعلت من عيسى نبياً وهو فى المهد ، ومن يحيي حكيماً وهو صبي .

على ان الجواد عليه السلام قبضه الله اليه وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وابن هذه السن لو جد فى التحصيل لما بلغ درجة عالية في الفضل فكيف يؤخذ عنه الفضل كله .

مافائدة امام ممنوع عن التصرف

ما اتفق لاحد من الذين قالت الشيعة بامامتهم انه تصرف فى الناس امراً ونهياً ، واستطاع ان يصلح الناس على ما ارتضته الشريعة وصاحب الشريعة ونفذ الاحكام ، ونواميس الاسلام ، حتى أمير المؤمنين عليه السلام ايام سلطانه ، بل وفي عاصمة ملكه ، فان الناس حاربته وخالفته ، ففئة ناكثة واخرى قاسطة ، وطائفة مارقة ، ورابعة معتزلة ، وما استطاع ان يجعل الكوفة طيعة وهي عاصمة حكمه ، فكيف بالبلدان الاخرى ، والناثية منها خاصة ، أليس هو القائل في عهد سلطانه : لو استوت قدماي من هذه المداحض لغيرت اشياء ، وهو القائل : لو ثنيت لي الوسادة لافتيت أهل التوراة بتوراتهم وأهل الزبور بزبورهم ، وأهل الانجيل بانجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم .

إذن فلا بدع لو قال القائل : ما الفائدة في نصب مثل هذا الامام للناس وهو لا يقوى على اصلاح الناس وامضاء احكام الشريعة : لانه ممنوع عن التصرف ، مصدود عن تنفيذ الاحكام والعمل بالشريعة .

ولكن الحري بان يكون هذا الاعتراض على الله جل شأنه دون الشيعة الامامية فيقال عليه : أية جدوى فى جعله الشرائع والاديان فيما سبق ولحق وهي معطلة لم تتنفذ على حدودها وقيودها ، وأية فائدة فى ارساله الرسل حتى بلغوا ١٢٤ الفا وقد قضى اكثرهم قتلا وسجنا وطرداً وتشريداً ، بل حتى اولو العزم منهم ، فانهم ذاقوا غصص الجور والاضطهاد من جراء الدعوة ، فسل نوحاً عما لقي قبل الطوفان ، وابراهيم عن نار نمرود وموسى عن الفرار ، وعيسى عن نكاية بني اسرائيل ومحاولتهم صلبه

فرفعه الله تعالى اليه ، ومحمداً عن اضطهاد قريش وحصرهم له ولبني أبيه بالشعب وشن الحروب والغارات عليه بعد الهجرة، وما ارسلهم الله تعالى جميعاً الا لطفاً بالعباد ، وعطفاً على الخليقة ، وأملا فى انقيادهم الى الطاعة وفرارهم عن العصيان، فارسالهم ما كان الا لصالح العباد انفسهم وما ارتكبوه مع الانبياء كان جناية على انفسهم لفوات الصلاح منهم ، واما الانبياء فما اصابهم من الألم فهو قليل في ذات الله تعالى وما ضرهم عند الله ما لاقوه بل زاد ذلك في مراتبهم وعلو منازلهم .

فهذا الاعتراض ـ كما عرفت ـ لا يخص الشيعة ولا الامامية خاصة وانما هو كما اتضح لديك يجيء حتى على بعث الانبياء والرسل ونصب الخلفاء والاوصياء ، فيما سبق من الامم ، فما يراه هذا المعترض من الجواب عن شأن الانبياء واوصيائهم يأتي عن شأن نبينا واوصيائه عليهم جميعا سلام الله تعالى .

على أننا نجيب عن هذا الاعتراض ونرفع ما يحسبه ايراداً على الامامة الصامتة والخلافة المصدودة فنقول :

إن الله عز شأنه لابد له من ان يبعث للبرية هداة ومرشدين ليدلوهم على طاعته والسبل المؤدية الى الطاعة ، ويصدوهم عن معصيته والطرق الموصلة الى العصيان ، ما دام يريد أن يطيعوه ويحرم عليهم أن يعصوه ولو تركهم وانفسهم دون هداة وادلاء وانبياء واوصياء، لكان لهم الحجة عليه [illegible] اغفلوا الطاعة واجترحوا المعصية ، فباقامته المرشدين والهادين كانت له الحجة البالغة عليهم ، وليس الشأن اليه في ان يطيعوه أو يعصوه فانه جعل الاختيار لهم في الطاعة والعصيان ، والشكر والكفر ، بعد الدلالة والايضاح .

ونزيد الحال ايضاحا فنقول : ان فى الامامة بل وفي الرسالة ايضاً واجبات ثلاثة ، اولها على الله تعالى ثانيها على الامام ، ثالثها على الامة .

اما الاول فهو ان ينصب تعالى للامامة احد العباد، الذي يراه بملكاته

النفسية ، وصفاته القدسية ، اهلا لتلك المنزلة ، وقديراً على النهوض بهذا العبء الباهض ، وان ينص عليه اسماً ونسباً وقبيلة وبيتاً ، وان يقدره على الاتيان بالمعجز متى اقتضت الحاجة ، وان يأمر الناس بطاعته ، ويحذرهم من مخالفته ، وهذا كله قد كان منه جل شأنه ، وعظمت حجته .

واما الثاني فهو ان يقبل الامام تلك الامامة ، ويحتمل اعباء هذه الزعامة وهذا قد قام به الامام ، والآثار تشهد لهذا القبول ، وذلك التحمل وقد تصدى ما استطاع لاداء ما احتمله ، والقيام لما نصب له من الهداية والاصلاح .

وكفى منهم دلالة على القيام بهذا الغرض أمير المؤمنين عليه السلام وكفت منه مواقفه المشهودة ، ومشاهده المعروفة ، فهو المجاهد بسنانه ولسانه ، وباعماله واقواله ، وهل احد مثله كان مثالا للصلاح والاصلاح والرشاد والارشاد ، ونصح الامة ، واجتهاده على سلوكها سبل الهداية والفلاح ، وما حيلته اذا احتالت الناس مجتهدة في ان تخالفه .

ولم تسمح الظروف لغيره منهم في ان يجاهد بالسنان الا سيد الشهداء عليه السلام ، فكيف تراه وقد رأى ان الدين يدعوه لان يضحي بنفسه الزكية ، ونفوس عترته وصحبه ، الذين ليس لهم على وجه الارض شبيه ومن يقوى على ذلك الفداء سواه يقتل نفسه ونفوس تلك الصفوة الطيبة ليحيي الدين ، ويترك عيلة وجلها صبية صغار ، ويعلم انهم بعده يطاف بهم المجالس والبيد والبلاد ، كل ذلك ليعلم الناس ان هذا السبي والسب والاسر والضرب ، وذلك القتل الفظيع ، وبقاء الجثث صرعى ثلاثاً على الصعيد ، من أجل نصرة الحق وأهل الحق ، وخذلان الباطل وأهل الباطل

واما الأئمة الباقون فلا تعرف جهادهم بالقول والعمل دون ان تعرف احوالهم ، وتستقري سيرتهم في الارشاد والنصح ، ومن هذه السيرة يتجلى لك ما هم عليه من السريرة ، ومن اقوالهم واعمالهم تتعرف خصالهم ، وما امتازوا به من جليل الفضائل ، وقد اشرنا قريباً الى بعض المصادر التي

ترشدك الى جهادهم في النصيحة والاصلاح ، واجتهادهم في حمل الامة على الهداية والسعادة .

والذي يهديك الى مامنحوا به من تلك الصفات والسمات ان الامة اجمعت على فضلهم ، وجمال السيرة والسريرة فيهم ، حتى ممن لا يرى لهم امامة ولا يعترف لهم بتلك الزعامة ، واين من اجتمعت عليه الكلمة فى الامة سواهم

واما الثالث ، فهو ان تقبل الناس قول هذا الامام وتطيع امره ، كما يجب عليها ان تطيع الله تعالى وتطيع الرسول عليه وآله السلام « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم » بل لا تكون طاعة لله تعالى ولا للرسول بدون طاعة الامام ، لان الامر بطاعته جاء مقروناً بالامر بطاعة الله وطاعة الرسول ، ولان اوامره ونواهيه جائية من قبله سبحانه ومن قبل الرسول عليه وآله السلام ، ولانه لا يأمر الا بطاعة الله عزوجل وطاعة الرسول ، فمن لم يطعه لم يطع الجليل ولا الرسول ولا يخل المسلم انه يستطيع ان يطيع الله والرسول بدون طاعة الامام لان طاعة الامام انما وجبت لكونه المرشد الهادي ، والمبين للحق وسبل الرشاد فلا يقدر أحد ان يعمل بنواميس الشريعة بدون اشاراته وارشاداته لجهل الناس بها وعلمه واختفاء كثير من طرق الهداية عليهم وظهورها لديه فمن اعرض عنه وعمل بالشريعة والدين برأيه وقع في مهاوي العصيان كثيراً وخرج عن مناهج الهدى احياناً ، فكيف يطيع الله كما يريده تعالى وصدع به سيد الرسل وهو قد خالفهما في احكام الدين ، وفى امتثال امر الامام خاصة

وهذا الواجب اعني طاعة الامام لم تقم به الامة ، ومن الذي عمل من الناس بطاعة هؤلاء الأئمة فى ايامهم ، وانما اطاعوا ملوك عصورهم فى محاربة هؤلاء الائمة المعصومين ، وكيف يؤدي الامام منهم وظائف امامته ويصلح شأن الناس ، والناس عاصية له ، بل وقد قاومته بدلا من ان تنقاد اليه وحاربته عوضا من ان تستسلم له ، وفات الناس انهم خسروا الهدى والعلم والسعادة حينما خسروا ارشاد هؤلاء الائمة ، وانهم لم يظفروا بطاعة الله

وطاعة الرسول عند ما عصوا هؤلاء الهداة الادلاء والحجج الاوصياء.

نعم كان هؤلاء الائمة ـ عند ما اجمع الناس على خذلانهم ـ ينتهزون الفرص لنشر الاصلاح ، وبث الرشاد ، فكانوا بين الرماح المشرعة اليهم والسيوف المنتضاة عليهم ، وبين ظلم السجون ، ورصد العيون ، تسير مناهجهم الاصلاحية ، حتى اوجدوا بذلك الجد والجهاد فئة هي شطر المسلمين اليوم ، تقول بامامتهم ، وتستنير بهداهم ، وتسير على ضوء تعليمهم

فكان منع اللطف التام ـ وهو التصرف بالناس لما يصلحهم ـ من الناس انفسهم ، لا من الله تعالى ، ولا من الامام نفسه ، فما حيلة الامام اذا اجتهدت الناس فى عصيانه .

وهذا عين ما كان مع الانبياء السابقين الذين منعتهم الامم عن تأدية رسالاتهم ، وحالت دون القيام بنصحهم واصلاحهم ، بل ونفس ما وقع مع نبينا الصادق الامين صلى الله عليه وآله وسلم ايام دعوته بمكة المكرمة ولم تمنعه قريش عن تأدية الرسالة فقط ، بل ارتهفنونا من الاذى ، وضروبا من الاضطهاد ، حتى حصروه والهاشميين في شعب ابي طالب ثلاث سنين وكفى بهذا الحصار إيذاءً وجوراً .

فهل يستطيع أحد ان يقول : إن الله جل شأنه غير حكيم ولا لطيف فى بعثه لاولئك الرسل ولسيدهم المصطفى ، وان الانبياء غير ناهضين باعباء الرسالة ، ولامؤدين وظائف النبوة ، حين حالت الناس دون ادائهم واجب الهداية والنصح ، وفرض الاصلاح والتعليم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكرم انبياؤه كرما مبينا .

فما يراه الخصوم من الجواب عن شأن الانبياء عليهم السلام ومنعهم عن القيام باداء الرسالة فهو الجواب عما يقال في شأن الائمة من أهل البيت الذين قبضهم الله تعالى اليه والغائب المنتظر عليهم السلام ، ومن ثمة تعرف ان غيابه لا يضر في تحمله لاعباء الامامة ، وتصديه للقيام بوظائف هاتيك الزعامة ، ما دام المنع عن تصرفه ، والحجب عن نفعه للناس ، من الناس

انفسهم ، فماذا عليه اذا كانت الحيلولة دون اداء وظائفه منهم لا منه ، وقد ذهب عن الخصوم ـ ولعله لم يذهب ـ ان فى الامامة لطفين ، لطفا فى نصب الامام ، ولطفافي تصرفه ، وكلا اللطفين من مصلحة الناس انفسهم فاذا فات اللطف الثاني لم يفت اللطف الاول ، فالامام الغائب قد احرز اللطف بوجوده ، فوجوده كما شاء الله حجة على العباد ، وبقاؤه استمرار فى الحجية ، فما دام حياً باقياً يكون دليلا على الهدى وعلماً رفيعاً على الرشاد ، وتكون لله الحجة بالغة به على الناس .

ولادة الامام الثانى عشر وحياته

ولما انتهى بنا الكلام الى الامام الثاني عشر ، الذي قالت الشيعة بولادته وحياته ، كان الجدير ان نشير الى الجواب عما يقول خصوم الشيعة من التشكيك في هذين الامرين معاً ولادته وبقائه الى اليوم حياً .

والجواب ان نقول : لقد برهنت الامامية على ولادته واستمرار حياته بالادلة القاطعة ، وروت عن جهابذة العلماء من أهل السنة الاعتراف بها معاً ، ولو اردنا ان نورد تلك الكلمات وهاتيك البراهين النقلية لخرجنا عن دائرة الايجاز المقصود ، نعم يغنينا عن هذا كله ما سبق من الطريق العقلي ، وألخصه لك بكلمات تصيب شاكلة القصد فاقول :

لما كان العالم في حاجة الى الامام المصلح الناصح ، لان الكتاب والسنة غير وافيين بسوق الناس الى سنن الطريق ، ولو كانا وافيين لما اصبح الناس مذاهب متشعبة ، وفرقا متشتتة ، كان على اللطيف سبحانه ان ينصب للامة ومن الامة من يقوى على سوقهم الى الهدى والصلاح ، وصدهم عن الضلال والفساد ، لو اطاعوه ، وهذا لا يختص بعهد وزمان ، فالامام الصالح لهذه المهمة الكبرى واجب فى هذا اليوم ، وهل ياترى يوجب اللطيف تعالى عليه أمراً لطفاً بالعباد وفيه صلاحهم وهداهم ولا يوجده ، فالامام

الموصوف موجود هذا اليوم لا محالة ، فمن هو ذلك الامام الموجود في هذا اليوم .

ومن المستحيل عليه جل شأنه ان يجعل اماماً على الناس يخفى عليهم اسمه ونسبه وقبيلته وبيته ، ويكلفهم معرفته وطاعته، وكيف تقوم الحجة على الناس بامام مجهول ؟ انه تكليف بما لا يطاق ، وحجة غير واضحة ولا بالغة، وليس اليوم وقبل اليوم احد يعرف ادعيت فيه الامامة ، ولا ظهرت دلائل على مدع لها ترشد الى تلك الكفاية ، ولو كان ثمة احد بهذه الصفة لما خفي حاله وجهلت الناس امره، فلما لم يكن أحد يعارض هذا الامام الذي ادعت الشيعة ولادته ودوام حياته تعين ان يكون هو الامام الموجود فى هذا العصر ، وهو الامام المهدي بن الحسن العسكري عجل الله فرجه .

ولا يكون الامام المهدي حياً موجوداً الا ان يكون مولوداً ولو لم يكن مولوداً عند وفاة ابيه العسكري عليه السلام فمن هو الامام بعد الامام العسكري الى حين ولادة هذا الغائب ، إذ لا يجوز ان يخلو زمان من امام عادل مصلح ودليل مرشد معصوم عن الزلل والخلل ، كما اوضحناه آنفا .

على ان الامام المهدي الذي سوف يملأ الارض قسطاً وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجوراً ، متفق عليه بين فرق المسلمين ، سوى ان بعض الفرق تذهب الى انه ما ولد وانه سوف يولد وبعضهم الى أنه مولود موجود غير انه ليس بابن الحسن العسكري، وقد عاضد الدليل رأى الشيعة ومذهبهم فى ولادته ووجوده حياً الى هذا اليوم ، وانه ابن الحسن العسكري عليه وعلى ابائه السلام ، وقد اوضحنا في ان وجود الامام لابد منه فى الناس وان الفائدة من وجوده اقامة الحجة به عليهم ورعايته للامة ، وبه تنقطع حجة الناس على الله تعالى فيما لو ادعوا اهمالهم من نصب الحجة الدليل والمصلح الناصح .

واما عدم الانتفاع به النفع الظاهر فلا يعارض اللطف في نصبه ، لان

صده عن اداء وظائفه كما عرفت ما جاء الا من قبل الأمة نفسها ، لا من الله سبحانه ولا من الامام نفسه .

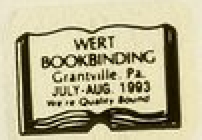
واذا قال القائل : لم لا يظهر اليوم لاصلاح الناس وهم في حاجته فيقال له : ان السبب الذي حجبه عن العيون هو الذي يدعوه الى استمرار الحجب ، ومن اين نعتقد بان الناس تطيعه لو ظهر اليوم ، وحالهم مع آبائه معلوم ، ومع أمير المؤمنين عليه السلام من اول يوم بعد الرسول عليه وآله السلام معروف .

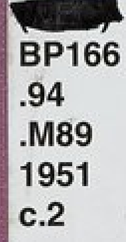
على ان معرفة الوقت الملائم لظهوره غيب راجع الى الله تعالى وهو اعرف به ، واذا كان حقاً ان الامام هو ابن الحسن العسكري « ع » كان بقاؤه مستوراً أو ظهوره مشهوراً يرجع اليه عز شأنه ، والامام مأمور لا يحتجب ولا يظهر بدون امره سبحانه ، فما اقاويلنا اذن الا تخرصات واعتراض على حكمته تعالى ، نستغفره ونتوب اليه ، راجين منه الثبات على دينه ، والصبر على بلائه ، انه اكرم مسؤول واقرب مجيب

هذه خلاصة ما ذهبت اليه الشيعة الامامية في الامامة مع التلويح الى موجز البرهان العقلي ، ألفتها ليعرف الناس حقاً ما تعتقده الشيعة في الامام وتراه فيه من المقام ، سائلا ربي جل وعلا ان يجعلها خالصة لوجهه الكريم وان تكسب رضى ارباب البصائر والمعارف ، فاني لم اقصد بها المس في كرامة قوم أو امامة آخرين .

وقد شرعت في تأليف هذه الرسالة في النصف من شوال عام ١٣٦٣ وانتهيت منها في ١٦ ذي القعدة من نفس السنة الهجرية على مهاجرها وآله افضل الصلاة والتحية .


VETUS & TESTAMENTUM NOVUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY


WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY-AUG. 1993
We're Quality Bound




Princeton University Library
32101 099844266